المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

كتب اسلامية

لَحَظَاتٌ مَعَ الذَّبِيحِ وَأَبِيهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

بقلم عبد العزيز غنيم

العدد ١٢٩

Ghuneym, ʿAbd al-ʿAziz

كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

لحظات مع الذبيح وأبيه عليهما السلام

بقلم عبد العزيز غنيم

العدد ١٢٩
السنة الحادية عشرة
١٥ من ذى الحجة ١٣٩١ هـ
٣١ من يناير ١٩٧٢ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

اللّٰهُ

جَلَّ جَلَالُهٗ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« ونادیناه أن یا ابراهیم قد صدقت الرؤیا انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هـذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم »

« قرآن كريم »

مقدمة

روى الاخباريون ونقلة السنة أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يقول : أنا ابن الذبيحين ، ورووا عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما أن رجلا أتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقال له وهو يخاطبه يا ابن الذبيحين ، وأنه عليه الصلاة والسلام هش لهذه المقالة وبش وبدت على وجهه أمارات الغبطة وعلامات السرور ، وأنت خبير بأن هذين الذبيحين هما اسماعيل ابن ابراهيم وعبد الله بن عبد المطلب وأن هذين الرجلين كليهما قد كانا من آبائه عليه الصلاة والسلام وقد كان لكل منهما سيرته العطرة وتاريخه الطيب وجهوده المخلصة فى بناء صرح الانسانية واعلاء لواء البشرية والدفع بعجلة الحياة نحو الخير والحق والصلاح .

وقد تناول القرآن الكريم اسماعيل فوصفه بالصدق والنبوة وقرر أنه كان يأمر أهله بالصلاة وهى أفضل العبادات البدنية والزكاة وهى أفضل العبادات المالية وأنه قد حظى من ربه بالرضا وظفر منه بالحب والعطف وناهيك برجل يحظى من ربه بهذه الشهادة ويسعد بهذا الثناء الذى يبقى ما بقيت الدنيا ويدوم ما دامت الحياة ، وعبد الله وان لم يذكر فى القرآن

الكريم ولم ينل ما ناله جده اسماعيل من هذا الشرف السماوى الرفيع ، وهذا المجد الالهى العظيم فحسبه أنه ولد محمد عليه الصلاة والسلام وأقرب خلق الله صلة به ودنوا منه وانتسابا اليه ، وقد سلكه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى عقد الطاهرين وهو يزهو بأصله الكريم ونسبه العظيم .

وكيف أنه مازال يتنقل بين الأصلاب الطاهرة والأرحام الذكية حتى انتهى الى أبيه عبد الله والى أمه آمنة بنت وهب ولو لم يسجل التاريخ لهذين العلمين الكريمين سوى استسلامهما للقضاء وصبرهما على البلاء ورضاهما باسلام الروح وهى أعز شىء فى هذه الحياة اذعانا لأمر الله وامتثالا لطاعته وانقيادا لحكمته ومشيئته ، وان لم يستكنها سرها ولم يدركا هدفها لكفاهما هذا فخرا يدوم على الأيام ويبقى ما بقيت الأفلاك والنجوم .

وأنت خبير بأن الأمم الفتية والشعوب القوية والحضارات الراقية والمدنيات السامية ، انما تقوم على أسس راسخة من القيم الفاضلة وتستند الى دعائم ثابتة من الأخلاق الكاملة وأنه لا سبيل أمام المجتمع الذى ينشد الدوام ويطلب الاستقرار ويهوى الحياة الراضية الصافية الا أن يسلك الى هذه الغاية السامية . وهذا الهدف الكريم طريق التأديب والتهذيب الذى يصقل نفوس أبنائه ويجلو قلوبهم ويذكى أفئدتهم وضمائرهم ويجعل الكلمة بينهم للفضيلة لا للرذيلة وللحق لا للباطل وللعدل لا للظلم ويدفعهم الى المثل العليا والقيم الفاضلة .

ولهذا رأينا القرآن العظيم وهو يبنى المجتمع المسلم يسلك هذا الطريق وينهج هـذا السبيل فيحض على مكارم الأخلاق ويغرى بمحاسن الشيم،ويستعين على زرع هذه القيم فى القلوب وغرس هذه الفضائل فى النفوس بعرض أمثلة رائعة من سير الصالحين وذكر نماذج طيبة من أخبار الماضين لا فرق فى هذا بين من اختارهم الله تعالى للرسالة واصطفاهم للنبوة وبين غيرهم ممن لم يتبوءوا مكانتهم ولم يتسنموا منزلتهم ولكنهم شاركوا فى نشر الخير وعاونوا فى اقرار الطهر وجدوا فى اعلاء لواء الحق ورفع كلمة العدل .

ولم يضنوا على الانسانية بجهد ولم يبخلوا فى سبيلها بعمل .

وقصة الذبيح التى نحن بصدد تناولها فى هذه السطور ليست سوى مثل من هذه المثل التى استهدف القرآن والسنة من وراء ذكرها وتسجيل خبرها تعليم المجتمع المسلم طائفة من الفضائل نذكر منها على سبيل المثال فضيلة الصبر والاحتمال وفضيلة الطاعة لله والامتثال لأمره وكيف أن النصر مع الصبر،وأن اليسر بعد العسر وأنه ما من شدة تستحكم حلقاتها وتستغلق أسبابها الا ولها حل يفرج كربها ويفتح بابها ويوهن عقدتها ويفسح الطريق بعد زوالها للسالكين واسع الجناب مبسوط الرحاب .

واذا كان أجدادنا الماضون وأسلافنا السابقون قد تعلموا من هذه القصة وأشباهها دروسا دربتهم على مكابدة الصعاب

وتخطى العقبات والتصدى لما فى الحياة من الخطوب والكروب حتى انكسرت حدتها ووهنت شدتها واستقامت قناتها فنحن فى أيامنا هذه أشد ما نكون حاجة الى هذه القصة وأشباهها نلتمس منها العبرة ونأخذ منها العظة ونفهم واعين أن هذه الحياة ليست معطرة بشذى الياسمين،ولا هى مفروشة بالورود والرياحين وانما هى وعرة السبل فجة الطرق ، لا حلاوة فيها بدون نار ولا أمل بلا عمل ولا أمنية بلا بذل وتضحية وأن الاستقامة على الجادة والرسوخ على المبدأ والايمان بالعقيدة والقيام بالواجب والطاعة للمولى سبحانه بلا قيود ولا حدود هو الخطوة الأولى والأخيرة فى بلوغ النصر وتحقيق الظفر .

وقد زعم اليهود أن الذبيح الذى سجل القرآن الكريم قصته وخلد سيرته ونشر فى العالمين عطره الفواح هو اسحاق وليس اسماعيل حسدا من عند أنفسهم لنا وحقدا من أعماق أفئدتهم علينا ، وقد حرفوا من أجل ذلك كتبهم وبدلوا صحفهم وأسفارهم .

وعلى الرغم مما بذلوه فى هذا من جهد وما عانوه من حقد وكيد فقد ظل الحق فى هذه القضية واضح السمات بين القسمات حتى فى هذه الكتب والأسفار .

وهذه السطور التى كتبتها فى هذا الموضوع سوف تميط اللثام عن وجه الحق فى هذه القضية فضلا عما استهدفه من ورائها

من العبر والدروس التى تجلو النفس وتطهر الحس ، والتى أشرت الى طرف منها فى هذه المقدمة وتركت مابقى لعرضه فى ثنايا هذه الرسالة. والله أسأل أن ينير لى الطريق ويهدينى السبيل ويجعل الحق غايتى والرشد رائدى ويجنبنى الزلل فى القول والخطل فى الرأى ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا فسدد الخطى وبارك المسعى واجعل لى من لدنك ضياء وسنا .

المؤلف

ظروف ملابسات مولد إبراهيم عليه السلام

لا خلاف بين المؤرخين فى أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد عاصر النمرود وعايشه ودعاه الى دينه واشتد الجدال بينه وبينه ، ولا خلاف بينهم كذلك فى أن النمرود هذا كان ملكا عظيم القدر عنيف القهر واسع السلطان وأنه كان وثنيا يعبد الأصنام شأنه فى هذا شأن غيره من سائر النــاس الذين كانوا ينحتون آلهتهم من الحجر وينجرون أربابهم من الشجر ويزعمون أن هذه الآلهة وهذه الأرباب تجلب لهم الخير وتدفع عنهم الشر وتنجيهم من البلاء اذا حل وتنقذهم من الشقاء اذا نزل ، ومع اتفــاق المؤرخين على أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد عاصر النمرود وعايشه فانهم قد اختلفوا فى اسم أبيه واختلفوا فى المكان الذى ولد فيه وسواء أكان آزر الذى ورد فى القرآن أباه أو عمــه أو اسم صنم كان يعبد فى زمنه أو كان وصفا قبيحا أو كريمــا لوالده وسواء أكان مولده فى مصر أو فى الشـــام أو فى بابل أو فى ديار قومه بفدان آرام • فان العبرة المنشودة والعظــة المقصودة من سيرته وقصة حياته لا تتوقف على الحسم فى أية مشكلة من هاتين المشكلتين اللتين احتدم حولهما هــذا الشجار ، وعلى كل حال فقد روى الاخباريون وكتاب السير حول الظروف التى ولد فيها ابراهيم عليه الصلاة والسلام أن النمرود رأى فى منامه أن كوكبا هائلا قد انطلق من خلال الأفق ، وأن ضوءه

د أخذ ينبثق وينتشر حتى غطى ضياء الشمس والقمر وأصبح الملك كاسف البال محزون الفؤاد يفكر فى هذه الرؤيا وفيما عسى أن تسفر عنه من خير أو شر وكان الملوك فيما مضى يهتمون بالأحلام ويدعون لها الكهنة والعرافين وأصحاب العلم بالنجوم وكانوا ينزلون على تأويلهم لها وتعبيرهم لأنبائها وأطيافها وكثيرا ما كان هؤلاء يصيبون وكثيرا ما كانوا يخطئون وكثيرا ما كان تأويلهم هذا يشقى الرعية ويؤلمها وينزل بها من ضروب العسف والاضطهاد ألوانا شتى وأصنافا مختلفة وكثيرا ما كان هذا التأويل يحدث العكس من ذلك تماما فتسعد الرعية وتبتهج ويصيبها من عطف الملوك ورضى الحكام ما لم يكن يخطر لها ببال .

وأنت ترى هذا واضحا فى القرآن الكريم ، ففى قصة يوسف تجد اللون الذى أسعد الرعية وأبهجها وفى قصة موسى تجد اللون الذى أشقاها وأتعبها وعلى كل حال فقد جمع النمرود السحرة والمنجمين وقص عليهم ما رأى وطالبهم بتأويله وتعبيره واتفقت كلمة القوم على أن مولودا سيظهر فى مملكته ، وأن هلاكه وزوال ملكه سيكون على يده وتشاءم الملك واشتد غضبه وعزم على منع هذه النبوءة من التحقق مهما كلفه هذا من الوسائل وما تطلبه منه من الحيل والذرائع ، ويختلف الاخباريون فيما فعله الملك لدرء هذا الخطب ودفع هذه الكارثة . فمنهم من يزعم أنه ذبح الأطفال وحبس الرجال ومنهم من يزعم أنه جمع الحوامل

من النساء وحال بينهن وبين أزواجهن ومع هذه الاحتياطات العنيفة فانه كان يأمر جنوده بتفتيش البيوت وقتل كل من يجترىء على مخالفة أمره مهما كان قدره ومهما ارتفع شأنه وقد تسأل وكيف ولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى هذه الظروف وكيف نجا من هذا البطش؟ ويجيب الاخباريون بأن الملك قد غادر المدينة لبعض شأنه وأنه قد أناب عنه تارح والد ابراهيم بعد أن حذره الدنو من أهله وأن تارح لم يف للملك بما عاهده عليه فقد خلا بزوجته ونال منها اربه. وحملت هذه المرأة لتوها وخشى تارح أن يعلم الملك بما فعل فينزل به مر العقاب وهداه تفكيره الى أن يدع زوجته فى سرب ويتعهدها بالطعام والشراب حتى لا ينكشف أمرها ولا يعرف الملك ولا أحد من أعوانه شيئا من أخبارها .

وولد ابراهيم فى السرب وراحت أمه ترعاه وترضعه وتسهر على حمايته ووقايته وكان أبوه يختلف اليها من وقت الى وقت على خوف من الملك وأعوانه أن يكشفوا سره الذى لو استطاع ألا يطلع عليه نفسه التى بين جنبيه لما امتنع منه ولا تردد فيه. ويختلف الاخباريون فى الفترة التى قضاها ابراهيم فى السرب وهل كانت تعد بالشهور والأيام أم كانت تحسب بالسنين والأعوام وان كانوا قد اتفقوا على أن نموه فيه كان سريعا

وأنه قد غادره عندما اشتد عوده واكتمل وجوده ، وما أشك فى أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد راعته الطبيعة عندما رآها وأذهلته الحياة عندما حملق بعينه فيها فهذه سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وهذه نجوم تلمع فى السماء وأطيار تسبح فى الهواء ، وهذه بقاع تزهو بخضرتها وتميس فى نضرتها وهذه أجادب لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ الى غير ذلك مما تراه العين من العجائب وما يشاهده النظر من الغرائب ويروى الاخباريون وكتاب السير أنه راح يسأل أمه عن كل ما يرى ويستفسر منها عن كل ما يسمع وكانت أمه تخبره بقدر علمها وتفيده بقدر معرفتها وذات يوم سألها قائلا يا أم من ربى وربك ورب أبى الذى كان يختلف الى واليك فيحضر لنا ما نحتاج اليه من الطعام والشراب وأجابته أمه فى سذاجة يابنى انه الملك وانه هو هذا الرب الذى تسألنى عنه ولم يقف ابراهيم عندهذا الجواب ولكنهسألها قائلا ومن رب الملك وأجابت الأم من هذه المقالة وطفت فوق شعورها هذه النبوءة التى كان السحرة قد أخبروا بها الملك وخشيت أن يكون ابراهيم هو هذا الغلام الذى سوف يكون على يديه هلاك النمرود وزوال ملكه وأسرعت الى أبيه تخبره بما سمعت وتفضى اليه بما راودها من الظنون وما ساورها من الشكوك واشتد خوف تارح وخشى أن يعلم الملك أو أحد أعوانه بشىء مما يقوله ابراهيم ألا يكون

له ولأسرته عنده سوى القتل والحبس الذى لا حد له ولا نهاية لآلامه وأحزانه فيه وظن أنه اذا خوف ابراهيم وحذره سوء العاقبة فانه سوف يقلع عن أسئلته هذه التى لا معنى لها والتى سوف لا تجلب عليه ولا على أسرته سوى الخراب والعقاب غير أن ابراهيم راح يحاور أباه كما كان يحاور أمه بل لقد كان فى مجادلته لأبيه أعمق نظرا وأشد اصرارا ولكى يثنيه أبوه عن هذه الفكرة فقد طلب منه أن يشارك أخويه فى بيع الأوثان وأن يأخذ وحده ما يربحه من هذه التجارة غير أن ابراهيم كان يذهب ببضاعته هذه الى السوق وينادى عليها قائلا من يشترى ما يضره ولا ينفعه وما يؤذيه ولا يسعده وكان الناس ينظرون اليه فى دهشة ولا تمتد أيديهم الى شىء مما معه حتى اذا أخذت الشمس طريقها نحو الغروب رجع ابراهيم بما معه من الأصنام فألقى بها فى النهر بعد أن يكون قد أوسعها تشويها وتحطيما .

ومضت الأيام بعد الأيام وابراهيم يفكر فى هذا الكون الواسع ويتأمل فى هذه الطبيعة الرحبة باحثا عن السبب الذى اليه ينتسب هذا الوجود والعلة التى تنبثق عنها هذه الكائنات التى لا نهاية لها ولا حد لألوانها وأجناسها ويحدثنا القرآن الكريم أنه نظر فى ملكوت السموات والأرض فأطال النظر وتأمل فيه فاستغرق فى

التأمل حتى اذا أسدل الليل سدوله وأرخى غلائله رأى فى قبة الافق نجما يتألق ضياه ويلمع ثناه فراح يقارن بينه وبين ما يعبده الناس من الأصنام المنحوتة والاوثان المنجورة وقال هذا ربى فهو أعظم من هذه الآلهة شأنا وأرفع منها قدرا غير أن هذا النجم مالبث أن خاب ظنه فيه فقد خفت ضوؤه وذهب نوره وأخذ طريقه نحو الأفول ولم يتمالك ابراهيم أن هتف من أعماق نفسه معبرا عن ضياع أمله وخيبة ظنه لا أحب الآفلين فان الاله الذى أنشده لا ينقص بعد كمال ولا ينطفىء بعد اشتعال وهذا النجم يبدو ويستتر ويظهر ويختفى وبينما هو مستغرق فى هذا التفكير أشرق البدر فى قبة السماء وبدأ فى حلة رائعة من البهاء والضياء وظن ابراهيم أنه قدألفى ضالته فهتف والغبطة تنبع من جوانبه وتتفجر من نواحيه هذا ربى هذا أكبر حجما وأرفع شأنا وأروع حسنا بيد أنه مالبث هو الآخر أن اختفى بعد ظهور وانعدم بعد وجود وراح ابراهيم يردد نفس العبارة التى هتف بها وهو يشاهد النجم وقد أخذ طريقه نحو الزوال لا أحب الآفلين وذهب الليل وتنفس الصبح ورأى ابراهيم الشمس وقد بزغت أشعتها وانتشرت أضواؤها وأنوارها وراحت توقظ الحياة والأحياء بما تمنحهم من الدفء وما تعطيهم من النشاط وظن ابراهيم أن أمنيته قد تحققت وأن أمله قد أصبح بين يديه غير أن الشمس ما لبثت هى الأخرى أن أفلت ولم يعد لأشعتها الصافية الساطعة وجود على صفحة

هذا الكون وكان ابراهيم قد ألفى مرفأ اليقين فأرسى سفينة البحث ونزل على ساحل الايمان ورفع يديه الى ربه ضارعا يلتمس منه الهداية ويطلب العون والمساعدة وهبط عليه الوحى من قبل المولى سبحانه آن أسلم قال أسلمت لرب العالمين وهكذا تم اصطفاء ابراهيم للرسالة واجتباءه للنبوة وبدأت منذ هذا الحين مرحلة جديدة من مراحل حياته المفعمة بجلائل الفعال وروائع الأعمال •

إبراهيم عليه السلام يدعو إلى ربه

وانطلق ابراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو الى دينه ويحث على ملته وكان أقاربه وأهل بيته بطبيعة الحال هم أول من بشرهم وأنذرهم ودعاهم وحذرهم ويسجل القرآن الكريم احدى المحاورات التى كانت بينه وبين أبيه فيقول « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ولا يغنى عنك شيئا يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » وانك لترى فى هذه المحاورة الرائعة ما يدهش قلبك ويذهل عقلك فقد انتقل فيها ابراهيم من الاستفهام الى الاسترحام ومن النهى المزوج بالحنان الى التخويف المقرون بالأمان ، والاستفهام كما ترى يلفت النظر فى أدب الى التأمل ويدفع العقل فى رقة الى التفكير ، والاسترحام ينهنه من شرة النفس ويكفكف من حفيظة القلب ، والنهى والتخويف كلاهما يعملان على ترويض ما جمح من العواطف وكبح ما استعصى من المشاعر وما أروع قول ابراهيم فى ابتداء كل عبارة يا أبت فهى فوق استدرارها للعطف واستنباتها للود واللطف تشير الى

ما كان يتمتع به ابراهيم من الأدب الجم والاحترام الزائد لأبيه على الرغم من اختلافهما في العقيدة وابتعادهما في المبدأ والغاية ومع هذا الحنان الغامر وهذه الرحمة المتدفقة من جانب ابراهيم فان أباه لم يذعن للحق ولم يستجب للهدى بل لقد انتهر ولده وهدده بالرجم اذا هو ظل على دينه الذى يدعو اليه بل لقد طـرده من بيته وأقصاه عن منزله وتنتهى المحاورة بابقاء ابراهيم عليه السلام على أبيه ووعده اياه بأنه سوف يظل يطلب له من ربه العفو وينشد له المغفرة ، وينتقل ابراهيم من محاورة أبيه وأقاربه الى محاورة قومه وأهل بلده ويقص القرآن علينا طرفا مما كان بينه وبينهم فيقول « واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبـدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لأبى انه كان من الضالين ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » وأنت اذا تأملت هذا المشهد الرائع وهذه المناقشة الهادئة العميقة لا تملك الا أن تذعن لابراهيم عليه الصلاة والسلام بالحكمة وتشهد له بالبلاغة وتؤمن بأنه كان واسع القدرة بالغ التأثير عارفا بمسالك التأديب ووسائل التهذيب فهو يبدأ نقاشه لقومه بهذا الاستفهام الممزوج بالحيرة والمرارة ماذا تعبدون؟ويجيب

قومه فى بساطة وسذاجة نعبد أصناما فنظل لها عاكفين وينتهز ابراهيم هذه الفرصة وهذا الاعتراف من قومه بأن ما يعبدونه ليست سوى أصنام منجورة من الشجر وأوثان منحوتة من الحجر فيسألهم فى تعجب بالغ واستغراب دافق هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون وينظر القوم فاذا أبواب القول أمامهم قد ارتجت واذا مسالك الحجج قد سدت واذا هم ينظرون فيرون ما بينهم وبين الحق كما بين السماء والأرض ولا يجدون ما يقولونه لابراهيم سوى أنهم هكذا وجدوا الآباء والأجداد فهم ينهجون نهجهم ويقتفون آثارهم أما الحجة التى يطمئن اليها العقل فليس لها فى هذا المقام موضع تحل فيه ولا ركن تأوى اليه وهنا يكون الجو أمام ابراهيم قد تهيأ لارساء عقيدته وتوطيد مبدئه فيعلن عداوته لآلهتهم وبراءته من أربابهم وأنه لا ينبغى أن يعبد الا الله وحده فهو الخالق والهادى وهو المطعم والمسقى وهو الذى يغسل المرض بالشفاء ويمحق الفقر بالعطاء وهو الذى بيده الموت والحياة وهو الذى ان شاء غفر الذنوب وستر العيوب ومنح الثواب العظيم والمقام الكريم ويختم ابراهيم هذا النقاش بهذا الدعاء الذى يسأل فيه الخير لنفسه والمغفرة لأبيه والنجاة من خزى الاثم وخجل المعصية فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وهكذا يهدم ابراهيم فى هذه المحاورة صرح الباطل ويبنى ركن الحق ويثبت بالدليل وجود الاله الواحد ويجمع بين ما لهذا الاله على عباده من الاحسان فى هذه الدنيا وفى الحياة الآخرة.

المحنة

ويتكرر اللقاء بينه وبين قومه وتتعدد المجالس والاجتماعات ويفيض ابراهيم فيها على الناس من واسع علمه ورائع فقهه ودقيق حكمته وعميق مأخذه وحسن فهمه وجمال منطقه ما يملأ النفوس روعة ويفعم القلوب اعجابا ويكشف القناع عن وجه الحق ويميط اللثام عن قسمات الخير غير أن قلوب القوم قد كانت فى أكنة مما يدعوهم اليه وفى آذانهم وقر ومن بينهم وبينه حجاب فلم تجدهم النصائح ولم تنفعهم العظات ولم يؤثر فيهم وعد ولا وعيد ولا تبشير ولا تهديد وكان ينتهى كل مجلس من هذه المجالس الكثيرة التى كانت بينهم وبين ابراهيم بهذه المقالة التى تعتصر قلبه وتجرح كبده وتضيق صدره وتدخل الأسى فى أعماق نفسه وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ، ولم يجد ابراهيم بدا من أن يعالج هذا الأمر بالحزم ويداويه بالحسم ويضرب القوم فى عقيدتهم هذه ضربة توقظهم من الكرى وتنبههم من الغفلة وتلفت أفئدتهم فى عنف الى التفكير

فيما ينصحهم به والتأمل فيما يدعوهم اليه والمقارنة بين ما ورثوه من الأعراف والتقاليد وبين ما ينادى به من الهدى والتوحيد ولا سبيل أمامه الى هذه الغاية الا أن يحطم أصنامهم ويكسر أوثانهم ولكن متى تسنح له هذه الفرصة ومتى يتحقق له هذا الأمل أن المعبد لا يخلو من الزائرين ولا يقفر من الغادين والرائحين وحتى اذا جاز أن يخلو من الناس فى ساعة من ليل أو نهار فان سدنة الأصنام هذه لا يفارقونها وان حراسها لا ينأون عنها وبعد تأمل وتفكير يجد ابراهيم الحل لهذه العقدة ويبصر الفرج من خلال هذا الضيق فقد اقترب عيد القوم ولم يبق بينهم وبينه غير أيام معدودات يقضونها فى اعداد القرابين وجمع النذور وتجهيز ما اعتادوا أن يضعوه بين أيدى الالهة من الأطعمة والأشربة وهذا العيد وحده هو الذى يخلو فيه المعبد من سائر الناس حتى السدنة والكهنة الذين لا يفارقونه فانهم يخرجون هم الآخرون لمشاركة القوم فى لهوهم ومزاملتهم فى لعبهم وعبثهم وينتظر ابراهيم هذا العيد بقلب متلهف ونفس متعطشة ويجيئه أقاربه وأصدقاءه ومن يألفونه من وجهاء قومه ويطلبون منه أن يخرج معهم وأن يشاركهم سرورهم وغبطتهم ويرفع ابراهيم وجهه الى السماء ويقلب عينيه فى الفضاء ويجيبهم فى أسى وحزن انى سقيم وقد كان سقيما حقا فقد آلمه ضلال قومه وبرح به كفرهم واعتصر فؤاده تعصبهم للباطل

ونأيهم عن الحق وأعياه مداواة هذا الداء وابراء هذه العلة ولا تسل عن حزن الأنبياء والمرسلين عندما يدعون قومهم فـلا يستجيبون ويأمرونهم فلا يأتمرون ويحثونهم على طريق الجنة وهم يأبون الا أن يتهافتوا فى اللظى ويتراءوا فى السعير ويدبر القوم ويخلو الجو أمام ابراهيم ويتمتم مغتبطا بهذه العبارة « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ويقبل صلوات الله وسلامه عليه حتى اذا كان فى وسط المعبد وكانت الأصنام بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله راح يرمقها باحتقار وينظر اليها فى استخفاف واشمئزاز وكان القوم قد وضعوا أمامها نذرهم وقربوا لها قرابينهم، طعام كثير وشراب من العسل واللبن والخمور وصاح ابراهيم فى وجه الآلهة ما لكم لا تأكلون ألم ترقكم هذه الاواون المختلفة من الطعام وهذه الأنواع المتعددة من الشراب ورفع معوله وراح يضرب الأوثان وثنا بعد وثن ويحطم الأصنام صنما بعد صنم حتى جعلهم جزازا الا كبيرا لهم لعل القوم يرجعون اليه فيما جرى لها ويسألونه عما أصابها وما أشك فى أن ابراهيم كان يعلم أن القوم سوف يفطنون اليه ولكن بعد أن يستقر فى نفوسهم أن آلهتهم ضعيفة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرا ولا أن تدرأ عنها مكروها وأنها ليست سوى أحجار لا مشيئة لها فى نفسها فضلا عن أن يكون لها هذه المشيئة فى غيرهـا وأذهلت القوم المفاجأة وعقدت ألسنتهم الصدمة وقد عادوا الى الآلهة يلتمسون منها البركة ويجدون عندها العون والسعادة فاذا هى قطع متفرقة

وأشلاء متمزقة واذا الفأس معلق فى كتف كبيرها كأنما هو الذى غضب عليها فأنزل بها هذا الهول وأوقع بها هذه النكبة ولما خف وقع الالم ووهن تأثير الكارثة راح القوم يتساءلون مشدوهين « من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين » وتتردد الأصوات من كل ناحية قائلة « سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » ويضج القوم غاضبين وهم يقولون «فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون»ويقبل فريق منهم الىابراهيم حتى اذا أحضروه راح كبارهم وأولو الحول والطول فيهميسألونه « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » وأجاب صلوات الله وسلامه عليه فى تهكم وازدراء بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون وظن القوم لسذاجتهم وضعف عقلهم أن كبير الأصنام هذا ربما يكون هوالذى أنزلبزملائه هذا الأذى وألحقبهم هذا التحطيم والتكسير وما له لا يفعل أليس يغضب كما يغضبون ويثور كما يثورون ومن يدرى فقد يكونزملاؤه هؤلاء هم الذيناضطروه الىهذا الغضب ودفعوه الى هذه الثورة وذهب القوم الى الاصنام يستوضحونها الخبر ويعرفون منها حقيقة ما وقع ولكنهم ما لبثوا أن عادوا الى ابراهيم وقد خابت آمالهم وضاعت مساعيهم وهم يقولون « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » وسنحت أمام ابراهيم الفرصة لينال من آلهتهم ويسخر من أربابهم وينبههم فى عنف وصرامة الى فساد عقيدتهم وضعف مداركهم فطفق يقول لهم « أتعبدون ما تنحتون

«والله خلقكم وماتعملون» «أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلاتعقلون» فانظر كيف سخر ابراهيم من عقيدة القوم وكيف هزىء بآلهتهم وكيف أبان لهم أنهم هم الذين صنعوها بأيديهم وأن الله هو الذى خلقها واياهم وأنها لا تضرهم ولا تنفعهم وتأفف عليه الصلاة والسلام منهم ومن أربابهم وتساءل فى ألم وحسرة عن عقولهم متى تثوب اليهم وعن البابهم متى تعود الى أماكنها من رؤوسهم وان تعجب فعجب اسرار القوم على عبادة آلهتهم وقد اتضح زيفها وانكشف ضعفها واستبان خطأ رأيهم فيها وقبح تعلقهم بها وراح كبراؤهم يتشاورون فيما ينبغى أن يفعلوه بهذا الذى فضح الآلهة وسفه العقول وأتاهم بما لم يأتهم به أحد فى زمانه ودعاهم الى ما لم يدعهم اليه غيره فى عصره فالعالم شرقه وغربه وباديه وحاضره ورجاله ونساؤه وملوكه وحكامه يعددون الالهة وينوعون الارباب ولاينقادون لاله واحد كمايريد منهم ابراهيم أن يفعلوا ولوكان ما يقرره حقا وما يدعو اليه صوابا وصدقا لكان لنحلته هذه من يؤمن بها ممن يقاسمونهم العيش على ظهر هذا الكوكب واجتمعت كلمة القوم على الاستراحة من ابراهيم والتخلص من كيده وافكه كما كانوا يزعمون وصدر الحكم بتحريقه بالنار واتفقوا على الوسيلة التى سوف يكون بها تنفيذ هذا الحكم وتوقيع هذه العقـوبة وهى أن يبنوا له بنيانا ويقذفوه من فوقه فى وسط الجحيم وراحوا يجمعون الحطب ويحشدون الخشب وجدوا فى ذلك حتى شارك فيه الصغار والكبار والرجال والنساء حتى ان المرأة كانت تنذر لئن قضيت حاجتها أو برئت من علتها لتأخذن حبلها وتشارك فى جمع

الوقود لاحراق ابراهيم ولما تجمع للقوم من الوقود ما أرادوا واحتشد لهم منه ما أحبوا أضرموا فيه النار حتى اشتد لهبها وعظمت ذوائبها وخيل لمن ينظر اليها كأنها توشك أن تبلغ الافلاك وأن تنال الكواكب والنجم جاوءا بابراهيم وأدخلوه على الملك وراح الملك يحاوره لعله يرجع عن رأيه ويثوب الى رشده ويقلع عما هو سادر فيه من عبادة الاله الواحد الى ما ألفه قومه وعاش عليه آباؤه وأجداده ودارت بينه وبين الملك هذه المحاورة القصيرة التى سجلها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وواضح من هذه المحاورة أن الملك سأل ابراهيم عن السبب الذى من أجله يدعو الى عبادة المولى جل وعز وأن ابراهيم قد أخبره بأن هذا السبب هو أن الله الذى يدعو اليه هو الذى يمنح الحياة لمن يشاء وينزل الموت بمن يشاء ولم تقنع الملك هذه الحجة وزعم أنه يحيى ويميت تماما كما يفعل رب ابراهيم الذى يدعو اليه وهنا لجأ ابراهيم الى مظاهر الطبيعة وما فيها من الآيات الدالة على وجود المولى سبحانه وقال له ان يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب وبهت الملك ولم يستطع أن يحير جوابا فقد أذهلته الحجة وأخرسه الدليل ولعلك تسأل ولمـــاذا لم يرد الملك هذه العلة كما رد العلة السابقة وهل كان يعييه أن يقول لابراهيم أنا الذى آتى

بالشمس من المشرق كما قال له من قبل أنا الذى أحى وأميت والجواب أن هذا لم يكن فى استطاعته فان الشمس تأت من المشرق من قبل أن يأتى هو الحياة ولا يستطيع أن يحتال على هذه الحجة كما احتال على سابقهتا بدعوة رجلين قضى عليهما بالموت فيطلق أحدهما ويضرب عنق الاخر ويزعم بهذا أنه خالق الموت والحياة ومن الناس من يدعى أن الشمس التى وردت فى محاورة ابراهيم ليست هى هذا الكوكب المشهور وانما هى شمس الحياة التى تشرق فى الجسم بأمر الله والتى لا سبيل الى اعادتها اليه بعد أن تأخذ طريقها نحو الغروب واذا صح هذا التأويل فان ابراهيم يكــون بهذه الحجة قد أبطل هذه الحيلة التى توسل بها الملك فى أنه يحيى ويميت تماما كما يفعل رب ابراهيم لان الملك لم يعد الحياة الى من أطلقه وانما أبقى عليها فيه وهو قول يفتريه وادعاء يدعيه وعلى كل حال فان الملك قد غاظه منطق ابراهيم وقوة حجته وأمر به فسيق فى القيود والاغلال الى البناء الذى كانوا قد أعدوه له وما أشك فى أن الناس قد خفوا جميعا لمشاهدة هذا الحدث ومعاينة ابراهيم وهو يقتاد الى مصيره المؤلم ونهايته الحزينة المفجعــة ويروى الاخباريون وكتاب السير أن ابراهيم لما استقر على البناء شد الجند وثاقه وأحكموا رباطه ووضعوه فى منجانيق ضخم وألقوا به فى النار وقد كانت كلمة واحدة يمكن أن تنجى ابراهيم من هذه المأساة ولكنه رضى بالقضاء وصبر على البلاء وترك نفسه لله الواحد يتصرف فيه كما يشاء وكم كان عجب القوم ودهشتهم وكم كان ذهولهم واستغرابهم عندما انطفأت النار وخمدت جذوتها وأحرقت كل ما أعدوه من الحطب والخشب وبقى ابراهيم كما هو

لم تصبه النار بأذى ولم تمسه بسوء حتى ثيابه ونعلاه وغطاء رأسه لم يمسسها لهب هذه النار ولم تدن منها حتى ولا شرارة من شرارها ويعلل القرآن الكريم ذلك بأن الله تعالى قد أمر النار أن تكون على نبيه هذا بردا وسلاما فكانت كذلك لم يضره حرها ولم يمسسه لهبها ويقول العلماء انه ما من كائن فى الارض ولا فى السماء الا وقد رثى لابراهيم وتوسل الى الله تعالى فى انقــاذه وأن الله سبحانه أنزل عليه جبريل يؤنسه وأرسل اليه ملك الظل يسليه ويرافقه وأن ابراهيم على الرغم مما أصابه لم ينطق بكلمة فيها ضجر ولم يتفوه بلفظة فيها يأس حتى ان جبريل طلب منه أن يسأل الله فى كشف هذا الضر عنه ، وأنه اعتذر بعلم الله بما هو فيه وانه ان شاء أنجاه وان شاء أرداه . ونعود الى قومه وقد أذهلتهم المفاجأة وأحاط بهم الدهش وراحــوا يقولون لابراهيم عظيم ربك هذا الذى تعبده لقد كشف عنك الضر ودرأ عنك الخطر وأنجاك من النار وقد أوشكت أن تحرق الشموس والاقمار وأمر الملك بأربعة آلاف بقرة فنحرت قربانا لهــذا الاله العظيم .

ابراهيم يهاجر بدينه :

ومع هذه الاية الكبرى وهذه المعجزة الخارقة فان القوم قد أصروا على الكفر وعكفوا على الباطل وأبوا أن ينقــادوا لله الواحد الأمر الذى لم يجد ابراهيم معه بدا من مفارقتهم وهجر ديــارهم عسى أن يجــد فى غيرهــم من يكون ألــين منهم

قلبــا وأطهــر نفســا وأنقى ضميرا وأقــرب الى الاستجابة الى الهدى والميل الى الحق وأخذ صلوات الله وسلامه عليه طريقه الى الشام ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط وهؤلاء القليلون الذين أطاعوه منقومه وآمنوا به من أهل بلده والقرآن الكريم يصور لنا هذه الحادثة فى سورة الممتحنة فيقول المولى سبحانه « قــد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لابيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله منشىء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » فقد برىء ابراهيم ومن معه منقومهم وكفروابآلهتهم وأبدوا لهمعداوتهم وبغضهمحتى يؤمنوا بعقيدتهم وينزلوا على مبدئهم ولم ينس ابراهيم أباه وهو يغادر المدينة فرق له وحن اليه ووعده بأنه سوف يظل يستغفرالله له وان كان لا يملك له من الأمر شيئا ثم رفع لواءالتوكل وأعلن التوبة وذكر أن المصير الى الله فمقاليد الحياة بيده وأزمتهــا فى يمينه وهو القادر على أن يخلق لهم اليسر من العسر والفرج من الشدة ويروى بعض العلماء أن ابراهيم لقى ابن أخيه لوطا وهو بباب المدينة فآمن به وهاجر معه وكان له نعم الرفيق فى السفر ونعم المعين فى الرحلة •

وما أشك فى أن فراق ابراهيم عليه الصلاة والسلام لوطنه كان هينا عليه ولا سهلا فى نفسه فليس شيء فى هذه الحيـــاة أحب الى الانسان من وطنه فهو على أرضه درج وتحت سمائه نمى وفى مغانيه ومجاليه رأى نور الحياة وظلامها وذاق حلاوتها ومرارتها وعرف أحزانها وأفراحها وما أشك فى أن ابراهيم قد وقف قريبا من فدان آرام وهو يغادرها وراح يناجيهـــا فى ألم ويخاطبها فى لوعة ويعتذر لها عن فراقه اياها بمثل ما اعتذر بـه محمد عليه الصلاة والسلام لمكة وهو يغادرها الى المدينة فمـــا أشبه الهجرتين وما أقرب الجماعتين فقريش آذت محمدا حتى أخرجته مضطرا وقوم ابراهيم عاندوه وقاوموه حتى لم يجد بدا من النأى عنهم والبعد عن ديارهم وما أشك فى أن ابراهيم قد ذكر وهو يأخذ طريقه نحو الشام ما مر به فى فدان آرام من المآسى وما عاناه من الآلام وكيف أنه قـــد خرج من ظلمـــة السرداب الذى ولد فيـــه الى ظلمـــة الشرك التى خيمت على نفوس قومه وذويه وكيف أن قومه قد تفننوا فى ايذائه وأمعنوا فى كيده وكادوا أن يذيقوه مرارة الموت بين ألسنة السعير لولا أن الله تعالى قد أخذ بيده ووقف الى جانبه ومع كل هذا التنكيل والتعذيب فقد كان قلبه سليما من الأحقاد بريئا من السخائم يدرأ الشر بالخير ويدفع القسوة بالصفح ويقابل الاساءة بالاحسان

ويروى المؤرخون وكتاب السير أن الله تعالى قد أمد ابراهيم فى مهاجره بالنعمة وأفاض عليه من الفضل فكان له هناك من الابل والبقر والغنم ما كان يعد بالمئين وكان لوط ينزل معه حيث نزل ويرعى معه حيث رعى حتى اذا سال الخير وعمت النعمة استقل كل منهما عن صاحبه فنزل لوط اقليم الأردن ونزل ابراهيم اقليم فلسطين ويروى الاخباريون وأصحاب العلم بالماضين أن القحط نزل حيث كان ينزل ابراهيم ولم تجد نعمة وغنمه النبات الذى ترعاه وأنه لم يجد بدا من مغادرة هذه الأرض الى مصر حيث المـــاء الغزير والخير الكثير ومصر يومئذ كانت تحت حكم الرعاة أو الهكسوس كما يسميهم المؤرخون وقد كان الفرعون الذى يحكم مصر أثنـــاء هجرة ابراهيم اليها ونزوله بها ظلومـــا غشوما قد أطلق العنان لشهواته وأرخى الحبل للذاته ونزواته وكان لا يسمع عن امرأة جميلة حتى يفترسهـــا ويقتل زوجهـــا وكانت سارة أمرأة ابراهيم على جانب نادر من الروعة والفتنة وفى الصحاح من الاحـــاديث الواردة عن النبى صـــلوات الله وسلامه عليه أنها أوتيت شـــطر الحسن ونهيك بامرأة تظفر وحدها من الحسن بالشطر بينما يوزع الشطر الثانى على سائر البشر ممن خلق الله وممن سيخلق وعلم الملك بنزول ابراهيم فى أرضه واقامته فى دياره وعلم بما عليه امرأته من السحر والفتنة وما أشك فى أن جلساءه وأعوانه على الشر والاثم قد زينوها له وحسنوها فى عينه وأغروه بأن يطبق عليها نفس القانون الذى ما انفك يطبقه على كل هيفاء حسناء تدفع بها الأقدار الى هذه البلاد وأرسل الملك الى ابراهيـــم وراح يســـأله عن حاله وماله

وما دفعه الى النزول بأرضه وهكذا حتى تطرق الحديث الى هذه المرأة الجميلة التى فى رحله وتروى الآثار أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام أخبر الملك عن سارة بأنها أخته ويظهر أنه كان يعرف من قبل عادة الملك أو أن أحد المصريين حدثه عنها محـذرا عندما رأى امرأته وشاهد ما هى عليـه من الحسن ويظهر أن اغراء جلساء الملك وحاشيته بهذه المرأة كان شديدا فانه لم ينصرف عنها بعد أن علم بأنها أخته وليست زوجة له فقد أمره بتزيينها له واحضارها اليه وعاد ابراهيم الى سارة وقص عليها القصص وحذرها من أن تخالفه فيما أخبر عنها به الملك وقال لهـا لقد قلت له انك أختى وأنت كذلك فليس على ظهر الأرض من هو على دينى الا أنا وأنت ، وفى الأسفار القديمة والآثار الشريفة أن امرأة ابراهيم أتت الملك فى قصره وأنه حاول أن يمد اليهـا يده بالسوء وأن الله عز وجل قد منعه من ذلك فقد يبست يده والتصقت بصـدره وأحس بالرعدة تمشى فى عروقه وتسرى فى مفاصله وطفق يسأل سارة فى ضراعة ويرجوهـا فى ذل أن تنقذه مما هو فيه وأنها اذا فعلت فسوف يطلقها الى بيت زوجها وسوف يمنحها من العطايا والهبات ما تقر به عينها وأثر هذا الالحاح فى قلب المرأة فعفت عنه وسألت الله سبحانه أن يجيره مما هو فيه وما كاد الملك يعود الى قوته ويحس بدفء العافية يمشى فى مفاصله حتى غلبته نزوته وطغت عليه شهوته وطفق يراود سارة مرة أخرى ولكنه ما لبث أن عاوده ما كان قد أصابه فيبست يده وارتعدت مفاصله وزاد وجيب قلبه وخيل اليه كأن الموت قد هبط عليه كما يهبط العقاب الكاسر على الفرخ الصغير

وعاد الملك الى سارة يسألها العفو ويرجوها المغفرة ويؤكد لها أن يده لن تمتد اليها بشر وأنها ستجد منه الكرامة والرعاية اذا هى دعت ربها هذا العظيم أن يرفع عنه ما أصابه وأن يجيره مما هو فيه وما كاد الملك ينجو من هذه الشدة ويخلص من هـذا الألم حتى آوى الى مخدعه ينشد الراحة ويطلب الهدوء وكأنما كان النوم فى انتظاره فما كاد يستقر على سريره حتى ضمه اليه فى رقة وأدناه منه فى حنان ورأى الملك فيما يرى النائم كأن عملاقا ضخما يهدده ويتوعده ويحذره ان هو اقترب من هذه المرأة فلن يكون له عنده سوى الموت الزؤام ولكن بعد أن يجرعه كؤوس الردى وأكواب الآلام وأفاق الملك مذعورا وأمر باحضار أولئك الذين أغروه بهذه المرأة وزينوهـا فى عينه وصب عليهم جام غضبه وسخطه وأمر سارة أن تعود الى بيت زوجها وأعطاها بقرا وغنما وجارية وكأن الله عز وجل قدرفع الحجاب بين ابراهيم وبين القصر فرأى بعينيه وسمع بأذنيه ولم يخف عنه مما كان بين زوجته وبين الملك شىء وقالت سارة لابراهيم حين دخلت عليه لقد خذل الله الكافر وأخذ منا هاجر وأعطانا ما ترى من هذه النعم وهذه الغنم •

وقد تسأل وكيف يقول ابراهيم للملك عن سارة أنها أخته وهى زوجته وكيف يتفق هذا وما أجمع عليه العلماء من أن الأنبيـاء لا يكذبون وأنهم لو كذبوا لهانت مكانتهم وهوت منزلتهم وانتفت الثقة بأخبارهم واختلط فى أقوالهم الحق بالبـاطل والصـواب بالخطأ والصحيح بالزيف وقد اتفق العقلاء على ان الكذب خصلة

ممقوتة وشيمة مذمومة وخلق يذرى بصاحبه ويذهب بقيمة المتصفين به ولم يزل من دأب الكرام أن يتنزهوا عن هذه الرذيلة فكيف بالانبياء والرسل الذين اجتباهم الله من خلقه واصطفاهم من بين عباده وجعلهم الأسوة والقدوة والمثل الأعلى •

والجواب أن من العلماء من أنكروا أن يكون ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد كذب وقالوا ان سارة كانت أخته حقيقة ولم تكن الشرائع اذ ذاك تمنع من اقتران الأخ بأخته وأن الأمر فى ذلك قد بقى على ما كان عليه الحال فى عهد آدم حتى نسخته شريعة موسى عليه الصلاة والسلام واذا كان هذا القول غير صحيح على سبيل الفرض ولم تكن الشرائع فى عهد ابراهيم تجيز اقتران الأخ بأخته فان سارة كانت ابنة عم له وابنة العم يطلق عليها لفظ الأخت عادة فاذا قال ابراهيم للملك عن امرأته هذه أنها أخته فلا يكون حينئذ قد كذب ، على أنه ليس من المستبعد فى رأى هؤلاء العلماء أن تكون هذه الحادثة أسطورة اسرائيلية لا أصل لها الا فى أسفارهم التى سادها التحريف وغلب عليها التغيير والتبديل وقالوا فى تبرير هذا الاحتمال ان سارة كانت عندما طلبها الملك فى السبعين وليس من المعقول ولا من المقبول أن يجن ملك كبير كفرعون مصر بامرأة عجوز ولى صباها وذهب شبابها ومضت الأيام بنضرة وجهها وروعة جمالها ومهما قيل أنها بلغت من الحسن ما بلغت فان لمر السنين أثره الذى لا يجحد فى قسمات الوجه وأساريره واذا كانت عادة بعض الملوك ترك الحبل أمام نزواتهم على غاربه فانهم لا ينتقون من النساء غير

الكواعب الأتراب اللائى يجلبن الأنثى ويعدن الشباب فان قلت وكيف يستقيم هذا الكلام وقد ورد فى الصحاح من كتب السنة أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات ؟ اثنتان منهن فى ذات الله فقد قال لقومه انى سقيم ولم يكن به مرض ولا علة ، وقال بل فعله كبيرهم هذا وكان هو الذى كسر الأصنام وحطم الأوثان وهذه الثالثة التى نحن بصدد الحديث عنها فى هذه المناقشة فان هؤلاء العلماء يجيبون بأن هذه الأحاديث أحاديث آحاد وقد أجمع القوم على أنه اذا وردت نصوص يوهم ظاهرها وقوع المعاصى من الأنبياء فانه يجب تأويلها اذا كانت متواترة أما اذا كانت آحادية فانها ترد على أســـاس أن تكذيب الرواة أولى من اتهام الأنبياء بالمعاصى والآثام ويضيف علماؤنا هؤلاء الى هذه القاعدة استبعادهم الشديد لأن يكون الكذب قد وقع من ابراهيم عليه الصلاة والسلام ولو على سبيل الندرة والقلة ويقولون كيف يتفق وصف ابراهيم بالكذب من أى لون كان وما ورد فى قوله تعالى من أنه كان صديقا وأنه عليه الصلاة والسلام قد سأل ربه أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين وأى نبى من الأنبياء اتهم بهذا الوصف كما اتهم به ابراهيم وهل يستقيم فى منطق العقل أن يسميه الله صديقا والناس لا يفتأون على مر العصور ينعتونه بأنه قد كذب ثلاث مرات وهل هـــذا هـــو لسان الصدق الذى جعله الله تعالى له فى الآخرين •

ومقطع القول فى هـــذه المشكلة هو أن الكذب الحقيقى وهو الاخبار بغير الواقع على سبيل التعمد غير جائز على الأنبيـــاء

والرسل، وغير واقع منهم كذلك وهو الخصلة المذمومة والشيمة الممقوتة التى يربأ عنها الفضلاء ولا يدنوا منها الكرماء أما الصدق الذى يبدو فى غير صورته ويظهر فى غير اطاره لغاية سامية تبغى وهدف كريم يقصد فليس من قبيل الكذب وان سمى به على سبيل الظاهر فلا تنافى اذا بين ما جاء فى القرآن من وصف ابراهيم بالصدق وما جاء فى السنة من أنه قد كذب ثلاث كذبات اثنتان منهن فى ذات الله فان السنة تعنى الصورة بحسب الظاهر بينما يعنى القرآن الحقيقة بحسب الظاهر والباطن جميعا وهـذا الجمع فى تصورى أدنى الى الصواب من رد بعض الأحاديث الأحادية نزولا على هذه القاعدة الكلامية التى ألمعنا اليها آنفا فان الانكار باب اذا فتح كان ضرره أكثر من نفعه وشره أعظم من خيره ، على أننى لا أنكر أن اليهود وغيرهم من أهل الكتاب قد نسجوا حول ابراهيم وبنيه من أنبياء بنى اسرائيل كثيرا من القصص وكثيرا من الأساطير والأباطيل التى لا أصل لهـا ولا دليل على ثبوتها وأن أسفار العهد القديم مليئة بهـذه الخرافات التى لا يسندها نقل ولا يعضدها عقل وأن نشاط اليهود فى هذا المجال بعد ظهور الاسلام قد كان من الوضوح والظهور بمكان وأن كعب الأحبار ووهب ابن منبه وعبد الله ابن سبأ قد لعبوا فى دنيا الأكاذيب دورا بالغ الخطورة الأمر الذى يتطلب منا اليقظة والحذر وحسن الانتباه لمـا ينسب الى ابراهيم وبنيه عليهم الصلاة والسلام من الأخبار وما يضاف اليهم صلوات الله عليهم من الأنباء بحيث لا نطمئن الى صحة خبر أو سلامة رواية الا اذا كان لها أصل فى كتاب الله تعـالى أو فى سـنة .

رسوله أو فى مقالة صحابى كريم وكانت الطرق والأسانيد الى هذه الأحاديث وتلك المقالات بريئة من النقد سليمة من الطعن خالية من العيوب التى بينها •

نقلة السنة وعلماء الحديث وليس يكفى لقبول الخبر ووضعه موضع الثقة أن يكون مسجلا فى كتاب ضخم من كتب التفسير أو معزوا الى امام حبر كابن عباس فقد جاء فى كتب التفاسير الصحيح وغير الصحيح ونسب الى الأئمة الكبار ما لم يرد لهم بخاطر ولم يخطر لهم على بال •

هاجر وإسماعيل على مسرح التاريخ

ونعود الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وزوجته وقد سلم من الجبار ونعم بهباته وعطاياه ولم يعد يرنق صفو عيشهما كدر أو يشوب سماء حياتهما غيم والتاريخ لا يذكر كم أقام ابراهيم وزوجته فى مصر قبل لقاء الملك ولا كم أقاما بعد هذا اللقاء ولا فى أية مدينة أو قرية قد ألقيا عصا الترحال ويبدو لى أن اقامتهما قد كانت بالعاصمة أو قريبا منها والا لكان بلوغ أمرهما الى الملك ووصول أخبار سارة اليه مما يصعب تصديقه والاطمئنان الى صحة روايته وتبقى اقامة ابراهيم وزوجته بعد المحنة التى مرا بها وأكاد أعتقد أنها ظلت حتى اطمأن ابراهيم الى أن الرخاء قد عاد الى الشام وأن القحط والجوع لم يعد لهما فى ربوعه مكان وهنا أخذ يفكر فى العودة ويعد للرحيل وما هو الا أن جمع متاعه وهيأ رواحله حتى أغز السير وأخذ طريقه نحو صحراء السبع وأقام فى هذه البادية قليلا وحفر بها بئرا كان يستقى منه لنفسه وأهله وغنمه ونعمه ولأمر ما لم تحفظه ذاكرة التاريخ فارق ابراهيم صحراء السبع وتابع السير حتى نزل بحبرون وهناك طاب له المقام وصفت له الحياة ورضيت عنه الدنيا وراحت تسقيه شهد السعادة وتذيقه حلاوة الهناءة والدعة فقد تزوج بهاجر وهى الفتاة المصرية الجميلة التى آمنت به واطمأنت الى دينه وخرجت معه من مصر

لتقوم بخدمته وتسهر على راحته ويروى المؤرخون وكتاب السير أن امرأته سارة هى التى نصحته بزواجها وزينت له الاقتران بها فهى فتاة وديعة وهى جارية وضيئة وقد تقدمت بها السن ودبت فيها الشيخوخة ولم يرزقهما الله بولد يبهج حياتهما ويؤنس وحدتهما ويعينهما على نوائب الدهر ومفاجآت الحياة وطمعت سارة فى أن يرزق الله ابراهيم هذا الولد من هاجر اذا هو اقترن بها فيكون لهم جميعا قرة عين وبهجة نفس وسلوى فؤاد ولم يكن يضايق ابراهيم عليه الصلاة والسلام من اقترانه بهاجر سوى حزن سارة وأساها وهى قرينة حياته ورفيقة وجوده وشريكته فيما نزل به من سراء الحياة وضرائها وأفراحها وأتراحها فلما رآها هى التى تغريه بهذا الزواج وتدفعه اليه وتتطلع من ورائه الى هذه الثمرة الشهية وهذا الأمل الجميل أقبل عليه راضى النفس منشرح الصدر مطمئن الفؤاد ولم يلبث الزوجان الا يسيرا حتى أتم الله نعمته عليهما وبسط بساط فضله أمامهما ورزقهما غلاما حليما ولا تسل عن فرحة ابراهيم وزوجتيه بهذا الغلام فقد جاء بعد ما برح بهم الشوق اليه وتوالى منهم الدعاء لوجوده والقرآن الكريم يحدثنا أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام طلبه من ربه وهو يغادر ديار قومه فارا بدينه ومهاجرا بعقيدته وأنت ترى هذا واضحا فى قوله تعالى « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم » وماأشك فى أن اسماعيل قد ملأ دار أبيه أنسا وأفعم منزله سعادة وأنه قد تفرس فيه فوجد فى ملامح وجهه وأسارير جبينه ما جعله يترقب له الخير الكثير ويرجو له الذكر الجميل غير أن ظل هذه

السعادة قد أخذ ينحسر قليلا قليلا وأن نور هذه الهناءة قد طفق يخفت يسيرا يسيرا فقد بدأت نار الغيرة تشتعل فى قلب سارة وراحت عقاربها تدب فى فؤادها ولم تعد تطيق رؤية هاجر ولا رؤية ولدها وتلك طبيعة النفوس الأنثوية لا حيلة فيها لمحتال ولا سبيل معها لترويض أو تأديب ، ويروى الاخباريون ونقلة الآثار أن سارة قد أبت أن تساكن هاجر فى منزل واحد وأنها قد أقصتها مرة بعد مرة وأنها قد هددت بقطع عضو من أعضائها حتى تشوهها فى عين زوجها وحتى تقضى على اعجابه بها واستراحته اليها ولسنا ندرى على وجه التأكيد اذا كانت هذه الروايات صحيحة مائة فى المائة أم أن أصابع الخيال قد شاركت فى نسجها وعاونت فى حوكها ويقول الرواة ان سارة لما ضاقت ذرعا بضرتها ولم تطق صبرا على مساكنتها راحت تلح على ابراهيم فى أن يقصيها وابنها عن الدار وعن المدينة بل وعن الاقليم كله وعزمت عليه أن يلقى بهما فى صحراء قاحلة لا أنيس بها سوى الذئاب ولا رفيق غير الوحوش والسباع ويزعم الرواة أن الذى أهاج سارة وأحفظ صدرها هو ما كانت تراه من كلف ابراهيم بولده وشدة حبه له واقباله عليه ويزعم فريق منهم أن هذا الاصرار من سارة على اقصاء اسماعيل وأمه قد كان بعد ولادة اسحاق فقد خيل اليها أن ابراهيم لم يكن يميل اليه كما كان يميل الى اسماعيل وأن الغلامين تسابقا وتصارعا ففاز اسماعيل على أخيه اسحاق فكان هذا التصميم منها على هذا النفى وهذا الاصرار على هذا الاخراج لهاجر وولدها الى بطون البوادى أو قلل الجبال وما أشك فى أن الخيال قد كان له

دوره الظاهر فى هذه الروايات وأن خروج اسماعيل من الشام قد كان قبل ولادة اسحاق وأن ابراهيم لم يخرج بزوجته هاجر وولدها اسماعيل نزولا على أمر سارة ولا تلبية لرغبتها ولا عملا على كسب رضاها واغتنام مودتها فما كان لنبى كابراهيم أن ينقاد لامرأة مهما كانت منزلتها فى نفسه هذا الانقياد ولا أن يذعن لارادتها هذا الاذعان وانما كان هذا كله وحيا أوحى الله به اليه وأمرا كلفه الله تعالى بتنفيذه ، وعلى كل حال فان ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد أعد راحلته وهيأ طعاما وشرابا وأمر هاجر أن تأخذ أهبتها وتجمع متاعها وتصحبه فى سفره فانه مرتحل عما قليل وما أشك فى أن هاجر قد راحت تسأل زوجها عن قصده وتستفسر منه عن رحلته وهل ينوى الذهاب الى أرض آبائه وأجداده بفدان آرام أم الى أرض آبائها هى وأجدادها بوادى النيل أم أن الله تعالى قد أمره أمرا فهو منفذه وحدد له مكانا فهو رائح اليه وما أشك فى أنها كذلك قد أخبرته بأن ولدها اسماعيل مازال رضيعا وأنها تخشى عليه وعثاء السفر ومتاعب التنقل وعناء الحل والترحال ولم يكن السفر فى تلك الأيام سهلا ولاكان هينا وانما كان جمرة من اللظى وقطعة من العذاب وكأنى بابراهيم النبى عليه الصلاة والسلام وقد طفق يحدث زوجته فى لطف ويخاطبها فى دعة ويطمئنها الى أنها سوف لا تلاقى فى سفرها هذا نصبا وسوف لا تقاسى منه عناء ولا تعبا وأن الله

عز وجل سوف يكون هو الرفيق لهم فى الرحلة والأنيس فى الغربة أما اسماعيل فانه سوف لا يجد الا ما يزيده قوة ويملأه حيوية وليس أعون على نمو الطفل وانبثاق العافية فى شتى خلايا جسمه من التنقل من بلد الى بلد ومن بيئة الى بيئة الى غير ذلك من الحديث الطيب والكلام المعسول • وامتطى ابراهيم راحلة وامتطت هاجر وابنها راحلة ثانية وانطلقت هذه القافلة الصغيرة تغز السير وتتابع الرحلة وتنتقل من بلد الى بلد ويروى المؤرخون وكتاب السير أن جبريل عليه السلام هو الذى كان يقود ابراهيم وزوجه فان الله تعالى قد حدد له الغاية وترك روحه الأمين يوجهه اليها ويقول الاخباريون أن ابراهيم كان كلما علا جبلا أو هبط واديا أو نزل بمكان مقفر أو معشب سأل جبريل أهنا محط الرحال ؟ أهنا نهاية السفر وكان جبريل يجيبه بالنفى ويأمره بالصبر حتى اذا كانوا بواد غير ذى زرع عند مكان البيت المحرم قال له جبريل يا ابراهيم هنا أمر الله تعالى أن تحط الرحال وأن تلقى عصا التسيار وأن تدع حبيبك وتترك نجيبك وذهب الملك الكريم الى مكانه فى السماء ونظر ابراهيم الى هذه البادية الجرداء التى لا نبات فيها ولا ماء والتى لا يسكنها غير الوحش ولا يألفها سوى الأفاعى التى تتلمظ من شدة سمومها والتى يبدو الموت فى فحيحها ويبرز من فوق أنيابها وكاد قلبه أن ينفطر وأوشكت نفسه أن تتمزق لقد أمر أن يترك بهذا القفر زوجته هاجر وابنه اسماعيل ولابد له من تنفيذ هذا الأمر بل لابد له من الرضا به والصبر عليه

ونظر ابراهيم الى زوجته ومد يده الى ولده فعانقه وقبلـه وقال لهاجر هذهقربة ماء فاشربى منها اذا ظمئت وهذا مزود به تمر فتبلغى منه اذا جعت وجذب حبل ناقته وكتم دموعا أوشكت أن تنهمل على خده وقال وأما أنا فأستودعك الله ويروى الاخباريون وكتـاب السير أنهاجر قدتعلقت بثياب زوجها وأخذت بخطام ناقته وراحت تسأله صائحـة وقد انهملت عبراتهـا وانهمرت دموعهـا لمن تتركنا بين الجبال ؟ للوحوش تفترسنا أم للسباع تمزق لحومنا أم لهوام الأرض تفرغ سمومها فى أجسامنا ؟ ان المكان كما ترى سملق أغبر وسبسب أعفر ليس به أنيس يجيرنا من بأس الدهر اذا نزل بنا ويعصمنا من كيد الزمن اذا هبط بساحتنا وهذا الطعام القليل اذا نفذ من أين نحصل على القوت ؟ ومن أين نجد الماء اذا فرغ هذا السقاء ؟ وابراهيم واجم صامت لا يجيب بكلمة ولا ينبس ببنت شفة ولمـا رأت هاجر أن الحزن قد عقد لسانه وأن الأسى قد حبس الكلمات فى فمه قالت له وكأنها تعتذر عنه آلله قد امرك بهذا وأجاب ابراهيم نعم الله قد أمرنى بهذا وثبتت هذه الكلمة فؤاد هاجـر وأطمأنت نفسها وأسرت الرضا فى أعماق فؤادها وقالت اذا كان الله هو الذى أمرك بذلك فسوف لا يضيعنا وأخذ ابراهيم طريقه نحو الشام وبقيت هى وحيدة تفكر فى حالها وفيما يمكن أن يصير اليه أمرها وما أشك فى أنها قد أحست بالرهبة وشعرت بالفـرق والخوف عندما أخذت الشمس طريقها نحو الغروب وراح الليل

يسدل ستائره قليلا قليلا على قبة الكون حتى أظلمت الدنيا واسود وجه السماء وخيل اليها كأن الشياطين قد احتشدت لكيدها واجتمعت للنيل منها وانزال الشر بها وراحت تتسمع الى أصواتها فى قصف العواصف ودوى الرياح وباتت ليلتها كلها ساهرة لم تنم وكان كلما بكى الطفل حلت وساق سقائها وأروته ومازالت به ترضعه تهدهده حتى يسلم نفسه للكرى ويترك أجفانه للنوم ويقول المؤرخون وظلت هاجر تأكل من مزودها حتى نفذ ما فيه من التمر وتشرب من قربتها حتى فرغ ما فيها من الماء ثم تراءت أمامها أشباح الجوع والظمأ وكلما اشتد سغبها جف اللبن فى ثديها حتى لم يعد به شيء يمتصه الطفل الامر الذى جعله يصيح ويبكى ولا تملك له أمه شيئا سوى اللهفة تخرج من صدرها حارة ملتهبة والدموع تسيل على خدها غزيرة متدفقة ولما أيقنت أن الطفل ميت لا محالة لم تستطع رؤيته وهو يلفظ آخر أنفاسه وانطلقت تعدو وتصعد فوق الصفا حتى اذا استوت على قمته راحت تدعو ربها أن يكشف عنها هذا الضر وأن يدفع عنها هذا البلاء وحملقت بعينيها لعلها ترى انسانا يعينها ولو بقطرة ماء عساها تعيد الى الطفل حياته وترد اليه روحه ونزلت تعدو حتى تجاوزت الصفا الى المروة وفعلت من فوق قمته مافعلته من قبل وهى على الصفا من التضرع والبكاء والابتهال والدعاء وهكذا راحت تتردد بين الجبلين مرة بعد مرة حتى اذا كانت فى السابعة لمحت سحابة مقبلة من

بعيد ماكادت تدنو من المكان حتى تبدت على حقيقتها وظهر لهـا جبريل عليه الصلاة والسلام وقد ملأ بجناحيه ما بين المشرق والمغرب واذا به يدعوها اليه ويناديها لتقبل نحوه ويروى الاخباريون أنه ضرب بجناحه الأرض من تحت عقب الغلام فتفجر الماء ثريا يجرى وأسرعت هاجر وراحت تغرف بيدها وتملأ سقاها وكأنما خيل اليها لفرط ظمئها أنها لم تر الماء من قبل وأنها سوف لا تراه من بعد وأخذت تأتى بالرمال وتضع حول الماء حتى لا يذهب هباء فى الثرى ولا يضيع سدا فى التراب ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم معلقا على هذا الخبر رحم الله أم اسماعيل لو لم تحط العين بما أحاطتها به لظلت تجرى متدفقة الى يوم القيامة وكأنما كان انبثاق الماء من بين أطباق الثرى فاتحة خير وبداية نعمـة فقد شربت هاجر وشرب ولدها اسماعيل وأخذ الطير يحوم حول المكان وكانت قبيلة جرهم تقيم عن كثب من مكة وكانت تعانى ما تعانى من قلة الماء والنبات وما ان شاهدت هذا الطير الحـائم حتى قال قائلها ان هذا الطير لا يحوم الا حول الماء وعهدنا بهذا المكان أنه سملق قفر لم تنبجس فيه عين ولم ينضح فيه بئـر وأرسلوا رائدهم فعاد وقد عم السرور قلبه وأنبأهم بأن امرأة وطفلا رضيعا يقيمان وحدهما وبين أيديهما عين نضاخة وأسرع القوم حتى اذا شاهدوا هاجر عرضوا عليها أن يقيموا معها وأن يشربوا من مائها وقبلت هاجر هذا العرض ولم تشترط عليهم سوى ألا يكون لهم فى هذه العين حق يطالبون به فهى ملك خاص لها ولهذا الطفل الرضيع وهكذا عمر المكان ودبت الحياة فيه ووجدت هاجر

وطفلها الأنيس والصديق والصاحب والرفيق ومضت الايام واسماعيل عليه الصلاة والسلام ينمو ويكبر حتى اشتد عوده واكتملت رجولته وأصبح قادرا على السعى من أجل الرزق والكفاح فى سبيل القوت وأمر الله ابرهيم أن يبنى له بيتا يكون مثابة لعباده وأمنا لزواره ومسجدا يذكر فيه اسمه ويرفع فيه ذكره وتتلى فيه آياته وسأل ابراهيم ربه وأين مكان هذا البيت الذى يريد منه أن يعلى أركانه ويرفع قواعده وأنزل الله عليه جبريل فرفعه حتى انتهى به الى حيث أودع زوجته وولده وما أشك فى أن ابراهيم قد كان مشغول البال بهما وأنه لم يكن يفتأ يفكر فيهما ويسائل نفسه عما يمكن أن يكون قد أصابهما وما أشك فى أنه قد ابتهج عندما رأى المكان قد عمر ودبت الحياة فيه وهوت اليه أفئدة لم تكن لتفكر فى اتخاذه منزلة لولا هذه العين التى فجرتها الرحمة الالهية وأجراها اللطف القدسى ويقول الاخباريون أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام رأى اسماعيل مستندا الى حجر وهو يبرى نبلا له وأن كلا من الولد وأبيه قد عرف ريح صاحبه وهدته اليه الفطرة الصافية والطبيعة الطاهرة وأن اسماعيل وابراهيم قد تعانقا فى شوق وتدانيا فى لهفة وراح كل منهما يضم صاحبه ويقبله وقد سالت دموعهما واشتد وجيب قلبهما وراح كل منهما يقص على الاخر ما أصابه منذ أن قضى الله عليهما بالفراق حتى جمع بينهما هذا اللقاء ولست أدرى أكانت هاجر ما تزال على قيد الحياة أم لا فقد رفع التاريخ قلمه عن هذا الأمر ولم يخط فيه كلمة من سطر بل ولا حرفا من كلمة وكل ما ذكره الاخباريون حول هذا الموضوع هو أن هاجر قد ماتت بعد أن شب ولدها اسماعيل وأنها قد دفنت

فى مكة ولكنهم لم يذكروا لنا عما اذا كان ابراهيم قد التقى بها بعد أن بوءها وابنها مكة أم لا وعما اذا كان موتها قد كان بعد زواج اسماعيل أو قبله وأياما ما كان فان ابراهيم عليه الصلاة والسلام وبعد أن فرغ من التحدث الى ولده بما كان من أمره بعد فراقه وفراق أمه وبعد أن استمع الى قصة ولده فى هذه الفترة ذاتها أنبأه بأن الله تعالى أمره أن يبنى له بيتا وأنه قد حدد له مكانه وهو بطبيعة الحال لا يستطيع بناءه وحده ويريد منه أن يعينه فى رفع قواعده وتوطيد أركانه وقبل اسماعيل هذه المهمة بنفس راضيةوصدرمنشرح وأرى أباه منه ماأبهج خاطرهوأدخل السرور على فؤاده .

تاريخ بناء البيت الحرام

ولا خلاف بين المسلمين فى أن البيت الذى أمر الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببنائه هو البيت الحرام وأنه هـو أول بيت وضع للناس وأن المسجد الأقصى هو البيت الثانى بعد بنائه وأنت ترى هذا واضحا فى قوله تعالى « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم » وتراه واضحا كذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام وهو يجيب أحد أصحابه وقد سأله عن أول بيت وضع للناس فقال : المسجد الحرام قال الراوى ثم أى فقال عليه الصلاة والسلام ، ثم المسجد الأقصى قال فكم بينهما قال أربعون سنة فالآية والحديث صريحان فى أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس غير أنهما لم يشيرا الى الوقت الذى بنى فيه ومن أجل هذا رأينا العلماء يختلفون فى تحديد هذا الوقت فيرى فريق منهم أنه بنى قبل خروج آدم من الجنة وقبل هبوطه الى هذه الأرض وأن الملائكة هى التى كانت تطوف حوله وتعبد الله عنده وأنه لما هبط آدم على ظهر هذا الكوكب أمره الله تعالى بزيارته وأن الملائكة هى التى دلته عليه وهى

التي علمته المناسك التى لابد منها فى أداء الحج وقد ظل البيت الحرام هذا فى مكانه من مكة حتى كان الطوفـان وعند ذلك رفعه الله اليه حتى علم ابراهيم عليه الصلاة والسلام مكانه وأرشده الى موضعه وهذا الفريق من العلماء يستند فى مقالته هذه الى عدد ضخم من الأحاديث المسندة والمرسلة والموقوفة والمرفوعة والى آيات كريمات من الكتاب الحكيم غير أن الأحاديث التى استشهدوا بها لا تخلوا من الجدل ولا تسلم من النقاش لا فى الطرق والأسانيد وحسب ولكن فيهما وفى المتن أيضا وأنت اذا قرأتها رأيت فيها أثر الصنعة ومسحة الخيال الأمر الذى يتبين لك معه أن أكثرها مختلق ولا يمكن أن يكون قد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بقيت الآيات التى ساقها هذا الفريق من العلماء للاستدلال بها على صحة ما يذهبون اليه ومنها قوله تعالى : « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا » وقوله : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » ومعلوم أن الآية الأولى لا تصلح دليلا لهم فهى لا تذكر سوى أن الله تعالى قد بوأ ابراهيم مكان البيت ولا يلزم من تبويئه المكان أن يكون البيت قد كان موجودا من قبل ابراهيم بل ان ذكر المكان هنا يثبت عكس ما قرروه وأما الآية الثانية فانها كانت تصلح دليلا لهم لو أن المفسرين كانوا متفقين على أن ابراهيم قد ردد هذه العبارة فور ترك ولده

وأمه بين جبال مكة وقبل بناء البيت ولكن ذلك لم يكن فان من المفسرين من يرى أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام انما ردد هذه العبارة بعد تزوج اسماعيل وبناء البيت وبعد أن غادر ابراهيم مكة للمرة الأخيرة وهذا الاتجاه فى تصورى هو أدنى الى الحق وأقرب من الصواب كما سوف أبين هذا فيما بعد، ويبقى الفريق الثانى من العلماء وهم الذين يرون أن ابراهيم هو أول من بنى البيت الحرام وأن هذا البيت لم يكن له وجود من قبله وحجتهم فى هذا أن القرآن الكريم قد خلا تماما من أية اشارة تفيد أن الملائكة هى التى بنت هذا البيت وأنها تطوف حوله وتعبد الله عنده بل ان قوله تعالى : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » يثبت عكس هذا تماما فانه يصرح بأن البيت قد وضع للناس ولو كانت الملائكة هى التى وضعته ومارست العبادة والطواف عنده لكان موضوعا لها ومبنيا لتسبيحها وتحميدها وما ورد من حج آدم الى البيت الحرام والتقائه بحواء على جبل عرفة وازدلافه اليها بالمزدلفة لا يقوم على أسس تثبت للنقد وتقوى على مواجهة النقاش والجدال والأمر كذلك بالنسبة لما روى من رفعه عند الطوفان واستقراره بعد ذلك فى السماء والأصل فى مثل هذه الأشياء العدم أما الوجود فانه يحتاج الى حجة ثابتة ودليل تطمئن اليه النفس ويثق به العقل وليس ذلك من الأمور السهلة ولا هو مما يستطيع القائلون بوجود البيت الحرام قبل ابراهيم

بأنهم يستندون اليه على أن هذه المسألة ليست من العقائد التى يجب الايمان فيها بنفى و باثبات وسواء أكنت من الذين يرجحون أن ابراهيم هو أول من بنى البيت الحرام أو من الفريق الذى يثبت العكس ويقرر بأنه عليه الصلاة والسلام كان مسبوقا اليه فأنت سليم العقيدة صحيح الايمان ولو كانت .هذه القضية مما يتوقف على القطع فيها خير عاجل أو آجل لما تركها القرآن الكريم بدون حكم حاسم ولا رأى قاطع بل لما أغفلها تماما ولم يعرض لها لا بعرض ولا بدرس ، ونعود الى ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام فنذكر أنهما قد اتفقا معا على تلبية الأمر الالهى وتنفيذ المشيئة القدسية التى أفضى ابراهيم باتجاهها الى ولده وراحا معا يجمعان الصخور والأحجار وسائر ما يحتاج اليه البيت من مواد البناء ووسائله التى كانت معروفة فى ذلك الزمان والقرآن الكريم يقص علينا هذا الخبر فى سورة البقرة المدنية النزول فيقول تعالى « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم • ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » وأنت اذا استعرضت هذه الآيات البينات رأيت ابراهيم وولده وهما يرفعان قواعد البيت ويوطدان دعائمه وينصبان أحجاره حجرا بعد حجر ولبنة بعد لبنة ولسانهما

يلهج بذكر الله ويجأر بهذا الدعاء الطيب وهذا الابتهال الكريم ربنا تقبل منا عملنـــا فأنت السميع لدعائنـــا وأنت العليم بنياتنا ربنا واجعلنا مسلمين لك نمتثل لأمرك ونهيك ونذعن لقولك وحكمك ونرضى بقضـــائك وبلائك واجعل من ذريتنا أمة تنهج هذا النهج وتسلك هذا الطريق وأرنا شعائر الحج ومناسكه وأركانه وواجباته واغسل الحوبة منا بالتوبة وامحو الخطيئة بالمغفرة انك أنت الذى تقبل رجعة التائبين الى بابك وتغفر ذلة المذنبين اذا دنوا من رحابك ويختم ابراهيم واسماعيل هذه الدعوات الصالحات بهذا الرجاء العذب وهذا الأمل الجميل وهو أن يبعث الله سبحانه فى هذه الأمة رسولا يكون من بين أبنائها ومن صفوة أحسابها وأنسابها يتلو عليها آياته ويعلمها الكتابة التى تفتح أمامها آفاق العلم وأرجاء المعرفة والحكمة التى تمكنها من رسم سياستها واحكام خططها وحسن التدبير لشئونها وأمورها ، ويطهر بالايمان منها القلوب،وينقى باليقين منها الأرواح والنفوس ، ويروى المؤرخون أن اسماعيل عليه الصلاة والسلام قد أخلص الطاعة لأبيه والعون له والامتثال لأمره حتى اذا فرغ بناء البيت وجاء وقت وضـــع الحجـــر الأسود طلب ابراهيم من ولده أن يبغيه حجرا حدد له علاماته وأوضح له صفاته وانطلق اسماعيل فى الجبل يبحث عن هذا الحجر وجاء بصخرة غير التى كان قد طلبها منه أبوه وهو يظن أنه قد وفى بالشرط وأتى بما هـــو مطلوب منه واقتـــرب اسماعيل واذا هو يرى أباه قد وضـــع الحجر الذى كان قد

طلبه منه فى مكانه وسأل اسماعيل متعجبا عمن جاءه به وآخبره أبوه بأن الذى جاءه به هو الله الذى لم يكل أمره اليه ويزعم الاخباريون أن هذا الحجر قد كان فى أول أمره ياقوتة حمـراء أو لؤلؤة بيضاء وأنه قد نزل من الجنة وهبط من السماء وأنه كان يلمع كما تلمع أشعة الشمس وينير كما تنير أضواء القمر وأن معاصى الناس هى التى أصابته بهذا السواد وهذه أخبار لا تستند الى حجة ولا ترتكز على دليـل ولا مدخل لهـا فى العقيدة والايمان وأنت بالخيار بين تصديقها أو تكذيبها وان كان رجع العلم الى الله فى هذا الشأن أقرب الى السلامة وأبعد عن الشبهة وأدنى من الصواب .

وما أروع قول عمر وهو يستلم هذا الحجر ويقبله ويرى الناس من حوله يستلمونه ويقبلونه،والله انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك فقد نفى عن هذا الحجر القـدرة على النفع والضر ورجع العلم فى شأنه الى المولى عز وجل وأشار الى العلة التى من أجلها راح يستلمـه ويقبله وهى الطـاعة المطلقة للرسول عليه الصلاة والسلام ، واقتفاء آثاره فى أقواله وأفعاله وان لم يتبين له وجه الحكمة ولم تتضح لعينيه ملامح الحقيقـة فان فى تعاليم الله أشياء يختبر بهـا التأمل والتفكير وأشياء تبتلى بها الطاعة وحسن الانقياد ولهذا فانـك ترى فى الكتاب والسنة من العبادات من كشفت أسراره وأميط اللثام

عن وجه الحكمة فيه ومنها مالم تمط عنه الأستار ولم ترفع عن وجهه الأقنعة وكأنما شرع الشطر الأول لبيان أن هذا الدين انما يقوم على الحجة والبرهان وشرع الشطر الثانى لاختبار قوة العقيدة وعمق الايمان واقرأ فى هذا ان شئت قوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الألباب ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد » فأنت ترى فى هذه الآيات البينات أن الله تعالى قد قسم الكتاب العزيز الى محكم ومتشابه وبين أن الذين فى قلوبهم مرض هم الذين يتتبعون هذا المتشابه لا طلبا للحق ولا سعيا الى العلم ولكن ابتغاء للفتنة وتظاهرا بالتأويل وأن الراسخين فى العلم هم الذين يؤمنون بهذا المتشابه ويفوضون أمر العلم بحقيقته الى الله لأنهم سلكوا من قبل وهم يتتبعون المحكم من القرآن طريق المنطق وسبيل البرهان فاهتدوا الى أن السر فى المحكم هو شحذ العقول والسر فى المتشابه هو اختبار الايمان فدعوا الله أن يثبتهم عليه وأن يعمقه فى أنفسهم وأفئدتهم وعلى هذا الاساس فان الحجر الأسود حجر كسائر الأحجار الأخرى التى بنى منها البيت الحرام وما هو الا رمز للوحدة وتضامن

الكلمة شأنه فى ذلك شأن القبلة تماما علم جامع وراية ينتظم تحتها الشمل ويلتئم الجمع ويتحد الهدف وتتماسك الكلمة وأتم ابراهيم واسماعيل بناء البيت وأكملا مرافقه وبقى أن يعلمهما ربهما المناسك والشعائر التى طلبا تعلمها منه وراحت الأوامر تتوالى على ابراهيم فى هذا الشأن وأنت ترى هذا فى قوله تعالى « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » فأنت ترى فى هذه الآية دعوة من الله تعالى لابراهيم أن يرفع فى مكة لواء التوحيد ، ويدك صرح الشرك والالحاد ، ودعوة ثانية الى أن يطهر البيت الحرام ويعده لاستقبال الطائفين والقائمين والراكعين والساجدين ودعوة ثالثة الى أن يؤذن بالحج وهو القصد الى الله تعالى والزيارة لبيته ويروى الاخباريون أن ابراهيم سأل ربه كيف يؤذن بالحج والمكان قفر والجبال محيطة به ومرتفعة فوق أرضه ومن ذا الذى عسى أن يسمعه والى أى حد سيبلغ صوته وأى جدوى فى هذا النداء وما من سميع ولا مجيب وأمره ربه بأن يؤذن وأن يعلى صوته بالأذان ووعده بأن الناس سيجيبونه ويلبون نداءه وأنهم سيأتونه من كل فج رجالا وعلى كل ضامر ويقول

الاخباريون ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام رفع عقيرتـه وولى وجهه شطر كل جهة من جهاته الأربعة وراح ينادى أيها الناس ان الله تعالى يأمركم بالحج فحجوا ويدعوكم الى زيارة البيت فأجيبوا وأن نداءه هـذا قد وصـل الى الذرارى فى الأصلاب فسمعت الأنفس ووعد الأرواح وأنه ما مـن نفس رن فى أذنها هـذا النداء الا وأجابتـه قائلة لبيك لبيك وأن النفوس التى لم يبلغها هذا الصوت هى التى لم يكتب لهـا الحج لأنها لم تسمع ولم تستجب ونداء ابراهيم بالحج كمـا نرى ثابت بالقرآن فالايمان به واجب والارتياب فيه كفـر وهو يشير فيما يشير الى أن زيارة بيت الله والحج اليه سوف تبقى على كر الدهور ومر العصور ما بقى على الأرض آدمى وما أقام فيها انسى •

إبراهيم يؤمر بذبح ولده

ومن الطبيعى بعد الأذان بالحج والدعاء اليه أن يعلم الله ابراهيم وولده كافة المناسك وهذا هو ما كان فقد هبط الوحى وراح ينتقل بهما من منسك الى منسك ومن مشعر الى مشعر حتى اقترب يوم النحر وهو اليوم الذى تقرب فيه القرابين وتذبح فيه الذبائح لله الذى سوف لا يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى من عباده والخشية من خلقه والشكر على ما رزق من النعم وما وهب من المنن وما أعطى من الأفضال وفى هذه الفترة وبينما كان ابراهيم يغط فى النوم رأى رؤيا أهمته وأقلقته وأدخلت الأسى والحزن فى أعماق فؤاده وكانت هذه الرؤيا خاصة بولده الذى لم ينعم عليه به الا بعد ما طعن فى السن وأمعن فى الشيخوخة والذى لم يكد يفرح بأنسه ويسر بقربه حتى أمره ربه أن يلقيه وأمه بين الصحارى والجبال بلا طعام ولا شراب ولا رفاق ولا صحاب والذى عاونه فى بناء البيت حتى أتمه وساعده فى رفع قواعده حتى أكمله وأصبح ابراهيم وهو لا يدرى ماذا يقول لولده لقد رأى فى منامه أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء حق ما فى هذا شك وهى جزء من أربعين جزءا من النبوة بالنسبة لغير الرسل من سائر عباد الله، أما بالنسبة لهم هم فهى وحى لابد من تنفيذه والانصياع له وكان ابراهيم قد اقترب هو وابنه من الصفا

ولم يكن معهما فى هذا المكان أحد وهنا نظر الأب الى ابنه فى مرارة وحملق فيه فى حسرة وقال له يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى وما أشك فى أن الحزن قد كان يعتصر قلب الوالد وهو يوجه الى ولده هذه الكلمات التى تسيل أسى وتقطر ألما وما أشك فى أن اسماعيل قد أذهله كلام أبيه وحيره منطقه وأسلمه الى التأمل والتفكير انه يعرف أن أباه يحبه ويفيض قلبه حدبا عليه واشفاقا به وهو اذا كان قد ألقاه بين جبال مكة وصحراها بلا أنيس ولا مجير فانه لم يفعل ذلك عن أمره ولم يأته بمحض ارادته ومشيئته وانما الله تعالى هو الذى أوصى اليه به لحكمة بالغة وغاية سامية وهدف كريم والآن يعرض عليه ما يعرض وهو نبى لا ينطق عن الهوى ولا يصدر الا عن وحى انه اذا مأمور من الله ولا يسعه أن يخالفه ويرفع اسماعيل وجهه وينظر الى أبيه ويجيبه قائلا «ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين» وتثلج هذه العبارة صدر أبيه وتدخل الطمأنينة الى أعماق قلبه فقد رأى من ولده حسن الاستسلام للقضاء وحسن الصبر على البلاء وكيف أنه لم يتردد فى الانقياد لأمر ربه والامتثال لطاعة مولاه وراح الوالد وولده يتمان الأمر وينهيان الشوط ويتابعان الخطى الى آخر الطريق ولما دنت ساعة التنفيذ وأسلم ابراهيم واسماعيل لهذا الاختبار الرهيب نفسيهما وأسلما لهذا الامتحان العصيب ارادتيهما أشفق اسماعيل على أبيه مما يمكن أن يكابده بعد ذبحه من الألم اذا

هو تلطخت ثيابه بدمه وعانى فى نحره والاجهاز عليه فقال له بصوت حزين يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمى فينقص أجـرى وتراه أمى فتحزن واشحذ شفرتك وأسرع بمر السكين على حلقى ليكون أهون للموت على فان الموت شديد واذا أتيت أمى فاقرئها منى السلام وان رأيت أن ترد قميصى اليها فافعـل فانه عسى أن يكون أسلى لها عنى وقال له ابراهيم نعم العون يا بنى أنت على ما أمر الله به وفعل ابراهيم ما أمره ابنه وأقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى حتى استتبع الدموع تحت خده ووضع السكين على حلقه فلم يجـزع ولم يعمل السكين شيئا قال الاخباريون وضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه فقال عند ذلك الابن يا ابت كبنى على وجهى فانك ان نظرت الى وجهى رحمتنى وأدركتك على رقة تحول بينك وبين أمر الله وهكذا تل ابراهيم ولده للجبين ووضع على حلقه السكين ونسى من أجـل الله كل ماكان يربطـه به وكل ما كان يـأمله فيـه ولو جـاز للجمـاد أن يبـكى لبـكت مـن هـول هذا المشـهد النجـوم فى السـماء والطيـور فى الهـواء والوحـوش فى الغبـراء والأسمـاك فى المـاء ويروى الاخبـاريون أن حملة العرش وأمـلاك الأفق وكافة الكائنات ضرعت الى ربها ودعت مولاها أن يرحم هذا الغلام الصغير وهذا الشيخ الكبير فقد ابتلى فصبر وأمر فأطاع وكلف كل منهما بما تنوء بحمله الجبال فرضى بالقضاء وانقاد للابلاء وعند ذلك نادى مناد بين الارض والسماء يا ابراهيم اكفف

يدك وارفع مدينك فقد صدقت الرؤيا ووفيت بالأمر وأما أنت يا اسماعيل يا أبا الفداء ويا خير الأبنـــاء لقد قبلت التضحية وجدت بالروح وكنت الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة والمثل الذى ترويه الأجيال للأجيـــال وتحكيه الأحقاب للأحقـــاب فى حسن الطاعة لله وحســـن البر للوالدين قال الاخباريون ونظر الأب وولده فاذا كبش أقرن أعين يفيض لحما وشحمـــا وقد أقبل اليهما من فوق سبير ومن خلفه جبريل يردد قوله تعالى « يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم »وقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى هذا الكبش فذبحه شكرا لله على فـــداء ولده وحمدا له على بناء بيته وتوارث الناس هذه السنة عن ابراهيم فكان النحر يوم العيد الأكبر فى بلد الله الحرام وفى كل بقعة يدين فيها الناس بالاسلام ويروى المؤرخون وكتاب السير أن الكبش الذى ذبحه ابراهيم قد هبط عليه من الجنة وأنـــه كان يرعى فيها أربعين سنة ويروون أن الشيطان لمـــا علم ما نواه ابراهيم عليه الصلاة والسلام من ذبح ولده ذهب الى أمه وسألها عن زوجها وولدها وأنها أخبرتـــه بأنهما قد خرجـــا يسعيان فى تحصيل القوت وجمع الرزق وأنه قال لها انهمـــا لم يخرجا لذلك وانما عزم زوجك على ذبـــح ولدك فقـــومى فحولى بينه وبينه وأن هاجر قالت له عند ذلك ان ابراهيم لا يمكن أن يكون قد انتوى هـــذا العمل فهو أب كريم ووالد رحيم وهو اذا كان قد انتوى هذا حقا فانما يمتثل أمرا قد أوحى به اليه وليس لى ولا له ولا للغلام الا الامتثال لأمر

الله والنزول على حكمه وذهب الشيطان كاسف البال محزون الفؤاد حتى التقى باسماعيل وقص عليه ما نواه أبوه وراح يغريه به ويحرضه عليه وكما أذعنت الأم للقضاء ورضيت به أذعن الابن كذلك للقضاء ورضى به ولم ييأس الشيطان وذهب الى ابراهيم يجرب معه حظه وقال له يا ابراهيم ماذا تريد والى أين تذهب وما هذه المدية التى فى يدك وأجاب ابراهيم بأنه رأى فى المنام أنه يذبح ولده وأنه ماض لتنفيذ أمر ربه وراح الشيطان يقول له هذه أضغاث أحلام وما كل حلم يصدق ولا كل رؤيا قد صدرت عن المولى سبحانه وتعـالى غير أن ابراهيم قد طوى عنه كشحا وحاد عن طريقه ازدراء واحتقارا ويقول الاخباريون ان هذه القصة هى السبب الذى من أجله كان رمى الجمار وكان ثلاث مرات ولم يكن أكثـر ولا أقل والعقل لا ينفى هذه الواقعة ولا يثبتها وانما هى فى تصـوره ممكنة والامكان لا يستلزم الحدوث والآثار التى نقلت هذه القصة لا تخلو من الجدل ولا تسلم من النقـاش والقـرآن الكريم يحدثنا عن قصة الفداء فى سورة الصافات فيقول تعالى « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلمـا وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجـزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجـزى المحسنين

وبشرناه باسحاق نبيا من الصـــالحين وباركنا عليـــه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين» ، وواضح من هذه الآية أن قصة الذبـــح قد وقعت بعد أن كسر ابـــراهيم الأصنام وبعد أن نجا من النار وبعد أن غادر ديار قومه بفدان آرام وواضح منها كذلك أن ابراهيم قد دعا ربه وهو فى طريقه مهاجرا بدينه أن يهب له غلاما صالحا وقد استجاب الله لهذا الدعاء وبشره بغلام حليم حتى اذا شب هذا الغلام وتجاوز الطوق وبلغ السعى ابتلاه الله تعالى بذبحه وكان ما كان مما سجله القرآن فى شأن كل من الشيخ والغلام ولأن هذه الآية لم تسم هذا الذبيح ولم يرد له اسم فى غيرها من الآيات التى تناولت ابراهيم وبنيه فان العلماء قد اختلفوا فى هذا الذبيح أهو اسماعيل أم اسحاق فذهب فريق منهم الى أنه هو اسحاق واستدل على رأيه هذا بأدلة أحدها أن ابراهيم طلب من ربه وهو فى طريقه الى الشام بعد فراقه لأهله ووطنه غلاما صالحا وأن الله تعالى قد بشره بغلام حليم وأن هـــذا الغلام الذى بشره به هو الذى أمره بذبحه عند ما بلغ معه السعى وكل آية وردت فى القرآن الكريم بتبشير ابراهيم فانهـــا لا تعنى غير اسحاق وأنت ترى هذا واضحا فى قوله تعالى « فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغـــلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » .

وتراه واضحا كذلك فى قوله سبحانه « قالوا لا تخف انا

أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » وحيث أن البشارة فى القرآن الكريم لم تكن الا باسحاق فهو الذبيح اذا وهو مرجع الضمير فى قوله تعالى « فلما بلغ معه السعى » .

وثانيها أن ابراهيم قد أعطى الله عهدا لئن رزقه غلاما لينحرنه ابتغاء وجهه وتقربا به اليه وأنه لما أعطى هذا الغلام أوحى الله اليه أن يوفى بنذره وقد جاء فى الأحاديث المسندة والمرسلة أن هذا الغلام هو اسحاق .

وثالثها . ما روى فى بعض الآثار من أن الملك لما أبى أن يؤاكل يوسف عليه الصلاة والسلام قال له أترفض أن تؤاكلنى وأنا يوسف بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله أضف الى هذا كله أن أسفار العهد القديم قد صرحت بأن اسحاق هو الذبيح وأن أمه سارة قد حزنت عندما علمت بأن أباه قد ذهب به ليذبحه وعلى الرغم من أنه قد نجا فان هذا الألم الذى أفرى كبدها واعتصرقلبها قد أودى بها فماتت بعد يومين أو أيام من وقوع هذه الحادثة وقد عرض شيخ المؤرخين والمفسرين أبو عبد الله محمد ابن جرير الطبرى وجهة النظر هذه وانحاز اليها وجد فى تثبيتها وتأييدها وادعى أن القرآن وان لم يصرح باسم الذبيح

الا أنه قد أومأ اليه بما لا يدع مجالا للشك ولا يبقى مكانا للريبة وبنى رأيه هذا على الدليل الاول الذى صدرنا به أدلة من يرون أن الذبيح هو اسحاق وان تعجب فعجب ما ادعاه ابن جرير من أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد نقل عنه القولان معا فنقل عنه أن الذبيح هو اسحاق ونقل عنه أنه هو اسماعيل وأنت خبير بأن النقل شيء وصحته شيء آخر وليس من المقبول ولا من المعقول أن يكون هذان النقلان صحيحين والا لكان الرسول عليه الصلاة والسلام مضطربا يقول الشيء ونقيضه ولا يتصور هنا دعوى النسخ لأن الواقعة واحدة وصاحبها لا يمكن أن يكون الا أحد الأخوين فاما أن يكون هو اسحاق أو اسماعيل وعلى هذا الأساس فرسول الله صلى الله عليه وسلم اما أن يكون قد ترك الأمر من غير تحديد للاسم كما فعل القرآن الكريم واما أن يكون قد سمى الذبيح وحينئذ فلابد وأن يكون قد وقف عند أحد الأخوين لم يعده ولم يرم عنه ويبدولى أن الاحتمال الثانى هو الأقرب الى الوقوع فان أسفار العهد القديم قد قطعت بأن الذبيح هو اسحاق وقد عايش الرسول عليه الصلاة والسلام يهودا فى المدينة وعاشرهم وناقشهم وحاورهم وما أظن أن هذه الحادثة قد مرت من غير أن يعلق عليها يهود ومن غير أن يقول فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه الكلمة الفاصلة . وما أشك فى أن الأحاديث التى نقلت عنه صلوات الله وسلامه عليه أن الذبيح هو اسماعيل هى الصحيحة وحجتنا فى هذا أولا أن الله تعالى

لم يبشر ابراهيم وزوجته سـارة باسحاق وحسب وانمـا بشرهما باسحاق ومن وراء اسـحاق يعقوب وليس من المعقول أن ينبئهما سبحانه من قبل ولادة اسحاق بأنه سيكبر وسيكون له نسل ثم يأمر خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذبحه وقول الطبرى فى دفع هـذا الدليل بأن الله تعـالى أمر خليله بذبح اسحاق بعد ما أنجب ولده يعقوب قول تعوزه الحجـة وينقصه الدليل وهو يتعارض وما جاء فى الأسـفار القديمة من أن زواج اسحاق انما كان بعد وفاة والده صلوات الله وسلامه عليه •

وثانيا أن الله تعالى يقـول « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى »وظاهر من هذه الآية أن الغلام الذى بشر به والذى أمر بذبحه هو ابنه من هاجر لأن هـذه الالغاءات المتتاليات تدل على أنه هو أول غلام رزق به ولا خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب فى أن اسماعيل كان أسبق وجودا من اسحاق وقول الطبرى ان كل بشارة وردت فى القرآن انما هى باسحاق قول غير منطقى لأن ابراهيم بشر باسماعيل من قبل أن يبشر بأخيه وليس بلازم أن تأتى البشارة على لسان الملائكة فان حمـل هاجر به بشارة ووضعها له بشارة ولا يلزم من عدم تبشـير الملائكة باسماعيل فى القرآن ألا يكون قد بشر به عن طريقهم

فان القـرآن لم ينف صراحة أنه لم يبشر ابراهيم بولـده اسماعيل •

وثالثا أن المحنة بذبح اسماعيل عليه الصلاة والسلام أنكى والبلاء به أشد فان ابراهيم عليه الصلاة والسـلام قد رزق به بعد أن طعن فى السن وأوغل فى الشيخوخة وألح فى طلب المساعد والمعين فاذا امتحنه الله تعالى بذبحه بعد هذا العمر الطويل وهذه الحاجة الملحة كانت المحنة أعظم وكانت العظة والعبرة أتم وأبلغ وأنت خبير بما للابن الوحيـد من منزلة فى قلب أبيه وقلب أمه •

ورابعـا أن النحر شعيرة من شعائر الحج وسنة من سننه التى صنعها ابراهيم والتى توارثتها الأجيال من بعده ومعلوم أن اسماعيل هو الذى أسكنه أبوه مكة منذ طفولته وهو الذى ساعده فى بناء البيت وهو الذى شارك أباه فى الابتهال الى الله أن يريهما مناسك الحج وهو الذى سمع نداء أبيه به لأول مرة فأى الأخوين فى منطق العقل يكون هو الذبيح اسماعيل الذى مر بهذا كله أم اسحاق الذى لم ير من هذا شيئا •

وخامسا أن الله تعالى نعت اسحاق يوم بشر به أباه وأمه بالعلم ونعت الغلام الذى أمره بذبحه بالحلم فكانت هـذه اشارة الى أن هذا غير ذاك وأنت خبـير بأن اسماعيل عليه

الصلاة والسلام كان معروفا بالحلم وأنه قد ورث هذه الخصلة أبناءه من بعده وأنها كانت ظاهرة غاية الظهور فى محمد عليه الصلاة والسلام الذى لم يكن يخير بين أمرين الا اختار أسهلهما والذى لم يعرف العرب فى زمانه أرحم ولا أحلم ولا ألين قناة ولا أوفر شفقة منه صلوات الله وسلامه عليه وقد نزل القرآن الكريم بهذا فقال تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » وحجة أخرى لابد من الاشارة اليها وهى مارواه المحدثون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول أنا ابن الذبيحين وما رواه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما من أن رجلا دخل عليه وقال له يا ابن الذبيحين وأنه عليه الصلاة والسلام قد ارتاح الى هذه العبارة وبدت معالم السرور على وجهه وأنت خبير بأن هذين الذبيحين هما اسماعيل بن ابراهيم وعبد الله بن عبد المطلب ، وما ورد فى أسفار العهد القديم من أن الذبيح هو اسحاق مدفوع بهذه الأدلة السابقة وثم دليلان آخران وهما أن هذه الأسفار قد ذكرت أن ابراهيم أمربذبح ولده البكر أو بذبح ولدهالوحيدولا خلاف فى أن اسماعيل هو البكر وهو الوحيد حتى ولد اسحاق وأن أسفار العهد القديم ليست مما يصلح الاحتجاج بها فان تحريف اليهود لها وتغييرهم وتبديلهم فيها أشهر من نار على علم والحق الذى لاشك فيه أن الذبيح هو اسماعيل وأن اليهود قد حقدوا على العرب وصعب عليهم أن يكون أبوهم

هو أبا الفداء وصاحب هذه الواقعة التى رفعت قدره وأعلت ذكره وعطرت الوجود بنشر فضائله ومناقبه فزعموا أن اسحاق هو صاحب هذه الحادثة وغيروا من أجل ذلك أسفارهم القديمة ولما جاء الاسلام نشط كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما من علماء يهود فى ترويج هذه الفرية ووضع الأحاديث التى تقول بها وتدعمها وقد صرح عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما بهذه الحقيقة وأنت ترى هذا واضحا فيما رواه عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن عباس قال : المفدى اسماعيل، وزعمت اليهود أنه اسحاق ، وكذبت اليهود .

وروى ابن حميد قال . حدثنا سلمةقال . حدثنا محمد بن اسحاق عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمى . عن محمد بن كعب القرظى أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز . وهو خليفة اذ كان معه بالشام ، فقال له عمر : ان هذا الشىء ما كنت أنظر فيه ، وانى لأراه كما قلت ، ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم ، فحسن اسلامه ، وكان يرى أنه من علماء اليهود ، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك قال محمد بن كعب القرظى : وأنا عند عمر بن عبد العزيز ، فقال له : أى ابنى ابراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : اسماعيل ، والله يا أمير المؤمنين ، ان اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم

يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه ، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره على ما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ، ويزعمون أنه اسحاق ، لأن اسحاق أبوهم وروى محمد بن سنان القزاز قال حدثنى حجاج ، عن حماد ، عن أبى عاصم الغنوى ، عن أبى الطفيل قال : قال ابن عباس : ان ابراهيم لما أمر بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه ، فسبقه ابراهيم ، ثم ذهب به جبريل عليه السلام الى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم تله للجبين وعلى اسماعيل قميص أبيض ، فقال له : يا أبت انه ليس لى ثوب تكفننى فيه غير هذا فاخلعه عنى ، فكفنى فيه فالتفت ابراهيم عليه السلام فاذا هو بكبش أعين أبيض أقرن فذبحه ، فقال ابن عباس لقد رأيتنا نتتبع هذا الضرب من الذبيح هو اسماعيل وأن اليهود قد حسدوا العرب على هذه الكباش ، وواضح من هذه الروايات وما يدور فى فلكها أن المنقبة التى نالها أبوهم ابراهيم فزعموا أنه هو اسحاق .

ولهذا فان الحسن البصرى ومحمد بن كعب القرظى وعامر بن شراحيل الشعبى كانوا لايشكون فى أن حادثة الذبح كانت فى مكة وبعد بناء البيت وأداء المناسك وأن اسماعيل عليه الصلاة والسلام هو الذى مضى بفضلها وذهب بذكرها بل لقد روى الشعبى وغيره أن رأس الكبش الذى ذبحه ابراهيم كانت معلقة بالبيت

حتى ظهور الاسلام وفى بعض الروايات أن قرنى هذا الكبش كانا يتوارثان الى ما بعد هذا الوقت وان تعجب فعجب زعم الطبرى بأن هذه الرأس وهذين القرنين قد نقلا من الشام الى مكة وقد بنى قوله هذا على الجواز والاحتمال لا على وثيقة مكتوبة ولا على حديث صحيح النسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نسى المستشرقون هذه الحقائق كلهـا وذهلوا عن التناقض الواضح فى أسفار العهد القديم وزعموا أن القرآن وان لم يصرح باسم الذبيح فان محمدا عليه الصلاة والسلام وأصحابه كانوا على القول بأنه اسحاق وأن يهوديا منافقا هو الذىزعم فى مجلس عمر بن عبدالعزيز أنههو اسماعيل وأن ابن عباس لم يكن يدرى على وجه الحقيقة أى الأخوين كان هو الذبيح وأن الأسانيد قد تناقضت فى النقل عنه الأمر الذى ان دل على شىء فانما يدل على تناقض الطرق والأسانيد عند المسلمين وعدم الثقة بها والاطمئنان اليها .

وقد تبين لك مما سبق أن ابن عباس قد كان جازما بأن الذبيح هو اسماعيل وأنه قد عزا القولالآخر الىاليهود واتهمهمبالكذب ونعت الكبش الذى ذبحه ابراهيم وذكر أنهم كانوا وما يزالون يتتبعون ما يشبهه من الشاء لأداء هـذه السنة واحيـاء هذه الأحدوثة وما كان أشـد فقـه ابن كثير المؤرخ والمفسر وعمق نظره حين قطع بأن الذبيح هو اسماعيل وعزا الأقوال التى تخالف هذا الى كعب الأحبار سامحه الله ، وخير ما نختم به هذا الحديث فى هذه القضية قوله تعالى « ان هذا لهو البـلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على

ابراهيم كذلك نجزى المحسنين وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » فان الضمير فى قوله تعالى « وباركنا عليه » عائد على الذبيح وهو غير اسحاق الذى بشر ابراهيم بنبوته قطعا « ومن ذريتهما » يعنى تعالى ومن ذرية اسماعيل واسحاق محسن مسارع فى الخير وظالم متورط فى الشر والله تعالى أعلم بالحق وما شهدنا الا بما علمنا وما أدانا اليه البحث والاستقصاء ومناقشة النصوص ومقارنة الروايات بعضها ببعض •

إبراهيم بين الحجاز والشام

وعلى كل حال فان ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد أكمل مناسكه وأتم حجه وودع زوجه وولده وأخذ طريقه نحو الشام حيث كانت زوجته سارة ترقب أوبته وتنتظر عودته والتاريخ لا يحدثنا كم أقام ابراهيم فى مكة بعد أن فرغ من المهمة التى كلف بها من قبل المولى سبحانه ولا عن الحوادث التى مر بها وهو فى طريقه منها الى الشام ويخيل الى أن سؤاله ربه عن كيفية احيائه للموتى قد كان فى هذه الفترة فقد رأى الموت بعينيه وهو يكاد يقترب من ولده اسماعيل وكيف أنه قد أوشك أن يطفىء شمعة حياته ويقطف زهرة وجوده لولا اللطف الالهى والعطف القدسى الذى أدركه فاستنقذه من بين أظفار الردى ومخالب الحتوف فما كاد ابراهيم عليه الصلاة والسلام يبتعد عن مكة ويغيب شبحه بين الهضاب والجبال حيث لا تراه غير النجوم ولا تسمع صوت خطى راحلته سوى الأحجار والصخور حتى راح يسأل ربه هذا السؤال الدقيق العميق رب أرنى كيف تحيى الموتى وسمع الجواب من قبل المولى جل وعز أو لم تؤمن قال ابراهيم بلى ولكن ليطمئن قلبى وهنا

وافته المنة وواتته النعمة وتحقق الأمل الذى كان ينشده وأمره الله تعالى أن يأتى بأربع من الطير وأن يقوم بذبحها وفصل أعضائها بعضها عن بعض ثم يفرق هذه الأعضاء فيجعل على كل جبل منهن جزءا فاذا تم له ذلك دعاها فأقبلت اليه طيورا كما كانت تعلوا وتهبط وتسكن وتتحـــرك وتصفق بأجنحتهـــا وتصدح بأصواتها وألحانها وفعل ابراهيم ما أمره به مولاه وما كاد يرى هذه الحقيقة حتى هلل وكبر واتعــظ واستعبر ورفع عقيرته[1] شاهدا للمولى سبحانه بالقوة ومعترفا له بالمشيئة والقدرة وما أشك فى أن ابراهيم لم يكن شاكا فى امكان البعث ولا مرتابا فى قدرة الله تعالى عليه وانما كان طلعة يحب أن يفكر فى كل شىء وأن يرى بعينيه كل شىء كذلك فقد أرخى لنفسه منذ نعومة أظفاره عنان التأمل وفتح أمام عقله آفـــاق النظر ووصل بهـــذا البحث والاستقصاء الى وجود المـــولى سبحانه والى وحدانيته والى أنه خالق الكون ومانح الحياة وصاحب الحول والطول فى هذا الكون الواسع العريض وأنت ترى يقين ابراهيم ورسوخ قلبه على الايمان واضحا فى قوله تعالى « قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » فقد اعترف فى جوابه هذا بأن الايمان يملأ جوانب عقله ولكنه يريد أن يطمئن وجدانيا بعد أن أذعن عقليا وفكريا وأيا ما كان فان ابراهيـــم عليـــه الصـــلاة والســـلام عاد الى زوجتـــه ســـارة وقد وصفت لهما حياتهما وابتسمت ولابد وأن يكون حدثهـــا بما

(١) رفع عقيرته : أى صوته .

وقع له فى مكة وما صادفه وهو فى طريقه اليها وبعد أن ولى وجهه مفارقا اياها ويروى الاخباريون أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد كثر ما له وازداد ما عنده من النعم والغنم وأنه كان رجلا كريما يحب الأضياف ويعنى بهم ويبالغ فى استقبالهم واكرامهم وأن فترة قليلة مرت عليـــه دون أن يستضيف فيها أحدا وأن ذلك قد آلمه وشق عليـــه وأنه خرج الى البرية لعله يجد ضيفا يتقرب الى الله تعالى باكرامـــه وحسن استقباله وبينما هو كذلك واذا بثلاثة رجال يلبسون ثيابا بيضاء ويظهرون فى منظر يدل على النعمة ويشير الى الثراء وهش لهم ابراهيم وبش وراغ الى أهله وجاء بعجـــل سمين وكان هؤلاء الرجال قد بدأوا ابراهيـــم بالقـــاء الســـلام ورد عليهـــم التحيـــة بمثلها وخوفه منهم عندما رأى أيديهم لا تصل الى هذا العجل الذى قربه اليهم ورأى الرجال هذا الخوف والاضطراب فى وجه ابراهيم فراحوا يطمئنون قلبه ويأمنون روعته ويكشفون له النقاب عن حقيقتهم وعن سبب مجيئهم فهم رسل الله وهم انما جاءوا لهدم قرية سدوم وجعـــل عاليها سافلهـــا ويرتاع ابراهيم ويشتد وجيب قلبه فسدوم هى قرية لـــوط وهو ابن أخيه وقد آمن به وصحبه وهو يهاجر من فدان آرام الى ربوع الشام وهو يعلم أن سدوم قرية اشتهر أهلها بالظلم وعرفوا بالسوء فهم يأتون الذكران من العالمين ويذرون ما خلق الله لهم من الأزواج وهم يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر

ويرفع ابراهيم رأسه ويوجه حديثه الى الملائكة قائلا ان فيها لوطا ويجيب الملائكة نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته فانها معهم وهى على دينهم وترى سارة خوف ابراهيم وقلقه وتشاهد فرقه واضطرابه ولم تكن قد سمعت مادار بينه وبين الملائكة فتضحك ويقوم الملائكة فيبشرنوها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب وتعجب سارة من هذه البشارة وتصيح وهى تضرب كفا بكف قائلة يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشىء عجيب ويهدىء الملائكة من انفعالها وينهنهون من حيرتها واستغرابها ويقولون لها أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد وتهدأ سارة ويسكن روعها وتعلم أن هذا هو أمر الله الذى لا تقهر قدرته ولا تغلب مشيئته والذى لا يحد أمره حدود ولا تكبله قيود وهكذا يعطى الله سارة الولد بعد ما تقدم بها السن ودبت فى جسمها الشيخوخة وانقطع أملها فى الانجاب والاعقاب وهكذا يسدى الله الى خليله ابراهيم نعمة بعد نعمة واحسانا بعد احسان ، ويشتاق ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى ولده اسماعيل ويدفعه الحنان الأبوى الى زيارته والاطمئنان على أحواله ويركب راحلته ويولى وجهه شطر مكة وما يكاد يضع قدمه على أرضها حتى يسأل عن منزل اسماعيل فقد كثرت فيها البيوت وعمرتها عشائر جرهم ويصل ابراهيم الى منزل ولده ويعرف أنه تزوج وأن زوجته هى احدى بنات

جرهم فتمتلىء نفسه بالفرح ويجزل الحمد لله على آن من على ولده بالراحة والاستقرار بعد أن من عليه من قبـــل بالانقــاذ والفداء ويطرق ابراهيم باب ولده وتخـــرج له امرأة عابســة الوجه مقطبة الحاجبين وتسأله من هو وماذا يريد ؟ ولا يجيبها ابراهيم عن سؤالها ولكنه يوجـــه اليهـــا الخطاب قائلا أين اسماعيل وتجيبه المـــرأة لا أدرى أين ذهب ولا متى يعــود ويسألها ابراهيم كيف حالكما وما الذى تشعران به فى هــذا البلد الذى لا نبات فيه وتجيبه المرأة نحن فى أسوأ حال وأنكد عيش وأكدر حياة وتؤثر هذه المقابلة الفظة وهذا الاستقبال الخشن فى نفس ابراهيم ويلوى عنان ناقته ويعود من حيث أتى وقبل أن يفارق الدار يقول لزوجة ولده اذا جاء اسماعيـــل فأقرئيه منى السلام وقولى له ان شيخا من صفته كذا وكذا قد أقبل يسأل عنك ومضى دون أن يراك وهو يوصيك بأن تغير عتبة الباب ويعود اسماعيل فيجد ريح أبيه يملأ المكان ويسأل زوجته مستفسرا أما جاءنا فى هذا اليوم من أحد وتجيبه المرأة بما جرى وتبلغه وصية الشيخ ويطرق اسماعيل فى حزن ثم يرفع وجهه الى زوجته ويقول لها أتعرفين من هذا الشيخ انه أبى وهل تدرين ماذا يريد انه يوصينى بفـــراقك فأنت عتبة الباب فقومى والحقى بأهلك فقـــد طلقتك وما أشـــك فى أن اسماعيل قد اشتد حزنه لهذا الاستقبال الجاف الذى واجهت به زوجتـــه أباه وما أشك فى أنه هو البـــاعث لابراهيم على

الذهاب وعدم الانتظار فقد عبثت فى وجهه وأبت أن تضيفه وساقت اليه من العبارات التى تنبىء عن جحود النعمة وكفر المنة ماكره اليه الدار وأغراه بعدم البقاء والانتظـــار ويروى الاخباريون أن هذه الواقعة قد تكررت مرة ثانية وأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد برح به الشوق الى ولده ودفعه الحنين الى معاودة زيارته وأنه أعد العدة وجمع الأهبـــة وأخذ طريقه نحو مكة ولم يسأل فى هذه المرة عن بيت اسماعيل فقد عرفه ولا عن ما اذا كان قد تأهل فقد رأى زوجته بالفعل فى المرة المـاضية وطرق الباب وخرجت اليه امرأة سمحة الوجه طلقة المحيا وما كادت تراه حتى ابتدرته قائلة أهلا ومرحبا بالشيخ الجليل والضيف الكريم ودعته الى النزول فاعتذر بأنه انمـا حضر لحاجة ولابد وأن يرجع أدراجه فور قضائها وسألها عن اسماعيل وعن عيشهما فى هذا المكان وأجابته المرأة بما أبهج خاطره وأغبط فؤاده قالت اننـــا فى أحسن حال وقد خـــرج اسماعيل للصيد وهو عما قليل يعود وسألها ابراهيم عن طعامها فأجابته بأنه اللحم واللبن فدعا الله أن يبـــارك فيهما وأمام اصراره على عدم النزول جاءت بحجر ووضعته تحت قدمــه وصبت ذنوبا أو ذنوبين من المـــاء على رأسه وغادر ابراهيم المكان وهو يقول لها اذا جاء اسماعيل فأقرئيه منى الســـلام وقولى له فليثبت عتبة الباب وقصت المرأة القصـــة على زوجها وأبلغته الوصية وفرح اسماعيل وأنبأها بأن هذا الشيخ هـــو

أبوه وأنه يوصيه بها خيرا وما أرتاب فى شىء ارتيابى فى عدم انتظار ابراهيم فى هذه المرة حتى يلتقى بولده اسماعيل فهو من أجله عانى مرارة الأسفار وواصل فى سيره الليل بالنهار وقطع من أجل مشاهدته الفيافى والقفار ومهما قيل من أن البراق هو الذى كان يحمله من الشام الى مكة ومن مكة الى الشام فان هذا لا يحملنا على أن نطمئن الى أنه عاد من غير أن يراه ومضى من قبل أن يضمه الى صدره ويطوقه بزراعيه والذى أظنه أنه قد انتظر فى هذه المرة حتى لقيه ونعم ولو بلحظات بمشاهدة وجهه والاستماع الى حديثه وفطن ابراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه وقد كبر سنه ودق عظمه وأبلغ رسالة ربه وأنعم عليه بولديه اسماعيل واسحاق وبنى البيت الحرام وامتحن بما امتحن به من البلايا العظام وانتهت مآسيه برحمة ربه به ورضاه عنه فقد آن لشمعة حياته أن تخمد ولسنا سراجه أن ينطفىء وأنه لن يلقى ولده اسماعيل بعد هذه المرة فى هذه الحياة الدنيا فودعه أحر وداع ودعا له أرق دعاء حتى اذا غادر البلد الحرام وكادت أن تغيب معالمها عن عينيه وأن تنأى مشارفها عن ناظريه أمر ناقته فوقفت وولى وجهه نحو هذا الحرم الآمن وهذا المكان الوادع وراح يبتهل الى ربه بهذه الكلمات الطيبات وهذه الدعوات الصالحات التى انفطرت لها الصخور الغبراء ورقت لها النجوم فى السماء والتى سجلها المولى سبحانه قرآنا يبقى مابقيت الحياة ويدوم

مادام ملكوت الله وأنت ترى هذا فى قوله تعالى « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شى فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . » وواضح من هذه الآية أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام دعا لهذا البلد الذى أسكنه ولده بالأمن وضرع الى المولى جل وعز أن يجنبه وبنيه جميعا عبادة الأصنام وعلل هذا بأنها قد أضلت الكثيرين من الناس وختم هذا الجزء من الدعاء بهذه الكلمة التى تسيل رقة وتتفجر عذوبة ورحمة ، من تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم وذكر ولده اسماعيل وكيف أنه قد أسكنه بواد قفر ومكان جدب وأنه ما قصد من وراء اسكان بعض ذريته بهذا الوادى الا ليقيموا الصلاة وضرع الى الله تعالى بأن يميل الى ذريته هؤلاء الأفئدة ويعطف عليهم القلوب ويرزقهم من الثمرات ليستديموا النعمة بالحمد ويستبقوا المنة بالثناء والشكر ومضى يقرر أن الله يعلم سره وجهره وما يخفيه

وما بيديه وأنه سبحانه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء وأنه تعالى يستحق أجزل الحمد وأعظم الثناء لأنه وهب له على الكبر اسماعيل واسحاق ومضى عليه الصلاة والسلام فى هذا التضرع والابتهال فطلب من المولى سبحانه أن يوفقه وذريته لاقامة الصلاة وأن يتقبل تضرعه ودعاه ولم ينس وهو فى مقامه هذا والديه ولا اخوانه من المؤمنين بدينه والموقنين بعقيدته فاستغفر لنفسه واستغفر لأبيه وأمه واستغفر لأصحابه فى مبدئه ورفاقه فى عقيدته •

إبراهيم عليه السلام يفارق الحياة

وهمز ابراهيم عليه الصلاة والسلام ناقته وأخذ طريقه نحو الشام ولسنا ندرى كم أقام عليه الصلاة والسلام فى بلاده بعد هذه الزيارة لولده ولكننا نعرف أنه قدمنى بوفاة سارة قرينة حياته ورفيقته فى شبابه وهرمه والرواة يختلفون فى الموضع الذى دفنها فيه والأكثرون على أنه دفنها فى مزرعة اشتراها بحبرون والقرآن الكريم لم يحدثنا عما اذا كان لابراهيم عليه الصلاة والسلام من البنين غير اسماعيل واسحاق وولده يعقوب أما المؤرخون فيذكرون أنه قد تزوج بزوجتين أخريين بالاضافة الى زوجتيه سارة وهاجر فنساؤه اذا كن أربعا وأنه قد أنجب اسماعيل من هاجر واسحاق من سارة وخمسة من قطورة بنت يقطن وستة من حجور بنت أرهير وهاتان المرأتان كلتاهما من العرب وعلى هذا الأساس يكون أزواج ابراهيم أربعا وأولاده ثلاثة عشر كلهم من الذكور أما الاناثفلم أجد له فيما قرأت منهن شىء وعلى كل حال فان ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد عمر فى هذه الدنيا وطال أجله فى هذه الحياة وعاش مائتى عام عند قوم ومائة وخمسة

وسبعين عاما عند قوم آخرين ويروى الاخباريون أنه كان قد سأل ربه ألا يميته حتى يكون هو الذى يطلب منه الموت وأن الله تعالى لـــا أراد أن يقبض روحه أرسل اليه ملك الموت فى صورة شيخ كبير قد أضناه المرض وبرحت به العلة وأصابه من ريب الزمان ما أصـــابه وأن ابراهيم قد رثى لحـــاله وتألم لوهنه وضعفه ومدى مايعانى من الأســـقام وما يـــكابد من الآلام وأنه سأله كم قضى من العمر فى هــذه الدنيا فأجابه بما يفيد أنه أكبر منه بسنتين اثنتين وعند ذلك استعبر ابراهيم وخشى ان هو امتدت به الحيـــاة الى هذا الحين أن يصـــيبه ما أصاب هذا الشيخ الكبير فسأل الله تعالى أن يقبضه اليه فانتفض هذا الشيخ وبدا على حقيقته وقبض روحه ويبدو لى أن هذه الرواية من الاسرائيليات التى لا يســـندها نقل ولا يطمئن اليها عقل فان ابراهيم الذى لم يسأل الله وهو فى النـــار انقاذه من الردى وان جاءه من اللظى وذكر أن علمه سبحانه بحاله يغنيه عن سؤاله لا يمكن أن يتشبث بالحياة الى هذا الحـــد ولا أن يتعلق بها الى هذه الغاية وأيا ما كان فانه عليه الصلاة والسلام قد فارق هذه الحياة عندما أزفت ساعته التى لا تتقدم ولا تتأخر وكأنى به صلوات الله وسلامه عليه وقد جمع ما عنده من بنيه وأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن يظلوا أوفياء لدينـــه

نصراء للته يعيشون لها ويموتون عليها ويجاهدون فى سبيلها ويحبون ما يحبون ويبغضون ما يبغضون من أجلها وأنت ترى هذا المشهد الرهيب وهذا المنظر المهيب فى قوله تعالى « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » وهكذا وصى ابراهيم بنيه بأن يكونوا حماة للتوحيد رعاة له يعلون لواءه وينشرون رايته وهكذا غادر ابراهيم هذه الحياة وترك هذه الدنيا ولكن بعد أن خط فيها بحروف من نور سيرته وقصة حياته وكفاحه الذى لم يفتر وجهاده الذى لم ينقطع وقد شاء المولى سبحانه أن يخلد مآثره ويديم على الدهر فضائله ومناقبه فسجلها فى صحف لأنبيائه وفى كتبه التى أنزلها على رسله وأنت اذا تصفحت التوراة والانجيل والقرآن وجدت كل هذه الأسفار مثنية عليه حامدة لآثاره لاهجة بقدره وذكره واقرأ على سبيل المثال فيه صلوات الله وسلامه عليه قوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة

وانه فى الآخرة لمن الصالحين » فقد جمعت هذه الآية كما ترى خصال الخير وشيم البر وعزتها كلها الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام فهو أمة فى الفضل وهو قانت كثير العبادة والزهد وهو مائل بعقله وقلبه عن الباطل الى الحق وهو لم يكن فى يوم من أيام حياته مشركا يعدد الآلهة وينوع الأرباب وهو شاكر لأنعم ربه عليه على الرغم مما قاسى من المحن وما عانا من الأهوال وهو من أجل هذا كان جديرا باصطفاء الله له للنبوة واجتبائه اياه للرسالة وهو قد أعطى فى هذه الدنيا حسنة وهى الثناء الجميل والذكر الطويل والسيرة العطرة الفواحة بشذى الخلق الفاضل والسلوك الكامل وهو فى الآخرة من الصالحين الذين يستحقون الثواب الجسيم والمقام العظيم وفى القرآن الكريم أن الله تعالى قد ابتلى هذا الخليل بكلمات وأنه عليه الصلاة والسلام قد أتمهن ووفى بهن وأنت تجد هذا فى قوله سبحانه « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن » والمفسرون مختلفون فى عدد هذه الكلمات وفى معناها وهل هى عشر أم أنها قد بلغت أربعين كلمة وفى تصورى أن هذه الكلمات هى البلايا والمحن التى مرت به عليه الصلاة والسلام من بداية حياته الى نهايتها وما القاؤه فى النار ولا خروجه من وطنه ولا محاولة اعتداء الملك على عرضه ولا القاؤه زوجه وولده بين الصحارى والجبال بلا طعام ولا شراب ولا رفاق ولا صحاب ولا أمره بذبح وحيده بعد كبر السن ووهن العظم ولا تكليفه ببناء البيت ولا موت زوجته وأحب خلق الله اليه فى حياته

الا بعض هذه الكلمات ألا ما أعظم هذا البلاء وما أعظم هذا الوفاء وما أروع هذا المثل الذى يضرب لكل فضيلة ويساق لكل منقبة والذى تتغنى بمآثر صاحبه الأزمان بعد الأزمان وتشدوا بمناقبه الايام بعد الايام •

وفـــاة اسماعيل عليـــه الســـلام
وشأن البيت بعده

ونعود مرة أخرى الى اسماعيل عليه الصلاة والسلام فنذكر أنه قد عمر مائة وثلاثين سنة وأنه قد لبث هذا العمر كله أو أكثره فى مكة وأنه كان يتنقل منها فى الفينة بعد الفينة والحين بعد الحين الى اخوته وبنى أبيه فيتفقدهم ويسأل عنهم صلة منه للقرابة ورعاية للرحم وطلبا للمثوبة من المولى سبحانـــه وقد تزوج اسماعيل عليه الصلاة والسلام من امرأتين وطلق أولاهما بأمر من أبيه وأبقى على الثانية وأنجب منها اثنى عشر ولدا وقد عده القرآن الكريم من المرسلين وذكره ضمن أسماء النبيين وأنت تجد هذا واضحا فى سورة الأنعام وفى ســـورة مريم واقرأ على سبيل المثال فى هذا قوله تعالى « ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف موسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى واليـــاس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » واقرأ كذلك قوله سبحانه « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » والمؤرخون يذكرون أنه عليه الصلاة والسلام قد أرسل الى العماليق وأهل اليمن وأنه ظل يبشرهم وينذرهم حتى وافته منيته وهو فى مكة وأنه دفن بالحجر حيث دفنت والدته وأن العرب المستعربة كلها منحدرة من صلبه وأن

محمدا عليه الصلاة والسلام فرع من شجرته الطيبة وغصن من دوحته المباركة وقد فارق اسماعيل عليه الصلاة والسلام هذه الحياة وترك البيت الحرام أمانة فى عنق أصهاره منجرهم عامة وفى عنق أبنائه لصلبه منهم خاصة ، ويروى الاخبـاريون أن أول من ولى أمر البيت بعد اسماعيل عليه الصلاة والسلام هو ابنه نابت حتى اذا هلك تنازع الأمـر من بعده جـرهم والعماليق وأقصوا ولد اسماعيل وكانت جـرهم تلى مكة من أعلاها وكانت العماليق تليها من أسفلها ثم انهما قد تحاربا وغلب العمـاليق وظلوا يملكون مكة ويلون أمـر البيت حتى دالت دولتهم وضعفت شوكتهم وظهرت جرهم مرة أخـرى عليهم ، وقد شاء الله سبحانه أن يكثر ولد اسـماعيل ويغلظ عودهم ويسترد ملكهم وولايتهم على البيت من أخوالهم حتى اذا شبت نار الحرب بين اياد ومضر من ولد نزار بن عدنان وأوهنت الفريقين جاءت خزاعة وملكت مكة واستولت عـلى على البيت الحرام ويروى المؤرخون وكتاب السير أن دين ابراهيم وولده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام قد ظل سائدا فى مكة وما حولها حتى جلب عمرو بن لحى الخزاعى الأصنام من الشام ونصبها حـول البيت الحـرام ودعا الناس الى عبادتها وتقريب القرابين لها وأن هذا التغيير للحنيفية قـد أثار ثائرة العرب وأحفظ نفوسـهم وراح الشعراء يعـاتبون عمرا ويلومونه وأنت ترى هذا فى قول الشاعر :

يـا عمـرو ، انك قد أحـدثت آلهة
شتى بمـكة حـول البيت أنصـابا

وكان للبيت رب واحـــد أبـــدا
فقــد جعلت لـــه فى النـــاس أربابا

لتعــرفن بـــأن اللـــه فى مهـــل
سيصطفى دونــكم للبيت حجـابا

وهكذا عبدت الأصــنام فى مكة وباض الشرك وأفــرخ بين ربوعها ولم يبق من الحنيفية سوى مناسك الحج وحتى هذه قد أخذ التغيير والتعديل يدنو منها رويدا رويدا وملكت خزاعة ماشاء الله لها أن تملك حتى آل أمر مكة عامة وأمــر البيت خاصــة الى قصى بن كلاب الذى جمع قريشا وألف كلمتهـا وأسكنها حول الكعبة والــذى قسم بين أبنائه مزايــا الشرف ووظائف الرياسة وآلت الزعامة الدينية من ولد قصى الى هاشم ابن عبد مناف ومنه الى عبد المطلب جــد النبى محمــد عليه الصلاة والسلام والمؤرخــون يذكرون أن البيت الحـــرام قد تعرض فى هذه الفترة الطــويلة لمحن كثيرة ومحــاولات شتى لهدمه أو النيل منه وأن الله تعالى كان يتولاه بالحفظ ويشمله بالحماية والرعاية وأنت خبير بما كان من أبرهة وجنده أنهم قد خرجوا من اليمن يريدون هدمه وابطال أحدوثته وكيف أن الله تعالى قد أحبط كيدهم وأفسد تدبيرهم وأنــزل بهم من البطش والانتقام ما مزقهم وفرقهم وجعلهم أحــاديث تمشى بهـــا الركبان وترويها الأزمان للأزمان واقرأ فى هذا انشئت قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجــارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » •

والمؤرخون مجمعون على أن العرب جميعا كانوا يجلون البيت الحرام ويعظمونه ويجيئون اليه من كل حدب وصوب وكانوا يحرمون الاشهر التى كانوا يقصدون فيها اليه فلا يسلون فيها سيفا ولا يشرع فيها رمح حتى ان الرجل كان يلتقى بقاتل أبيه أو أخيه فلا تمتد يده اليه فيها بسوء، واذا كان العرب جميعا يقدسون البيت الحرام هذا التقديس فان قريشا قد بلغت فى ذلك الغاية وأربت على النهاية ولهذا فان السيول عندما أوهت أركان البيت وأوهنت أجزاءه واضطروا الى أن يكروا فى اعادة بنائه لم يجمعوا له من أموالهم الا ماكان حلالا طيبا فلم يقبلوا فيه مهر بغى ولا درهما أو دينارا أخذ عن طريق الربا أو الغصب ولما عزموا على هدمه واعادته اضطربت منهم الأفئدة وارتعدت القلوب ولم يجترىء أحد منهم أن يضرب فيه بفأس حتى أراهم الله تعالى علامة طمأنت منهم النفوس وأثلجت منهم الصدور ، فقد ذكر الاخباريون أن حية صغيرة كانت تخرج من شق قريب من الكعبة وكانت تخيفهم بصوتها وفحيحها وكانوا يظنون أنها اشارة من الله تعالى تمنعهم عما كانوا قد أجمعوا عليه واذا طائر يهوى بجناحيه وينقض على هذه الحية ويطير بها الى حيث لا يدرى الا الله واذا هم يستبشرون ويأخذ الوليد بن المغيرة فأسه ويضرب به البناء لأول مرة ومع كل مارآه القوم فانهم لم يجترئوا على مشاركته حتى بات ليلته وأصبح بخير لم يصبه ألم ولم يمسسه سوء وهدم البيت وأعيد بناؤه واختلف القوم فى وضع الحجر الأسود أيهم يعيده الى مكانه من البيتوراحت

كل قبيلة تحرص على أن يكون لها هذا الشرف حتى لمعت نذر الحرب وبرقت صواعق القتال ولم ينجهم من هذا الشر غير اتفاقهم على أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد وكان محمد عليه الصلاة والسلام هو هذا الحكم وهو الذى أعاد الى القوم وحدة الصف والتئام الكلمة فقد وضع الحجر الأسود فى ثوبه ودعا كل قبيلة أن تأخذ بأحد أطرافه حتى اذا رفعوه الى مكانه تناوله هو وأعاده الى موضعه وقد أعيد بناء البيت الحرام مرتين أخريين أما أولاهما ففى خلافة عبد الله بن الزبير ومرجع هذا الى أن يزيد بن معاوية لما حاصر مكة راح جند الشام يضربون البيت بالمنجنيق وكانوا يستعملون فى ذلك الأحجار وقطع القماش الملطخة بالزيت بعد أن يضرموا فيها النار وأن عبد الله بن الزبير قد اضطر الى اعادة بناء البيت بعد أن احترقت أعواده وعملت النار عملها فيه ومن المؤرخين من يقول ان احتراق البيت لم يكن بفعل جند الشام وانما كان أحد جنود ابن الزبير قد أوقد نارا ليصطلى بها وكان الوقت شتاء وكانت الريح عاصفة فشبت النار فى أستار الكعبة وكان ما كان ، وتبقى المرة الثانية التى أعيد فيها بناء البيت وكانت فى خلافة عبد الملك وفى الحصار الثانى لابن الزبير فان الحجاج بن يوسف الثقفى بعدما قتل ابن الزبير وصلبه كتب الى عبد الملك فى هدم البيت واعادته الى مثل ماكان عليه فى الجاهلية وكان عبد الله قد أعاده الى ماكان عليه أيام بناء ابراهيم له اعتمادا على حديث صحيح

روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم وما كاد الحجاج يظفر برضا الخليفـــة فى دمشـــق حتى نقض ما فعله ابن الزبير وأعاد البيت الى ما كان عليه فى الجاهلية ويروى المؤرخون أن أبا جعفر المنصور قد راودته فكرة ابطال ما فعلـــه الحجاج واعادة البيت الى مثل ما كان عليه فى عهد ابراهيم عليه الصلاة والســـلام عملا بحـــديث عائشة رضى الله عنها غير أن الامام مالك حذره من هذه الفكرة وخوفه ان هو قام بتنفيذها أن يظل البيت الحرام لعبـــة فى يد الملوك يتداولونه بالهدم والبناء ومنذ هذا الحين لم يعد أحد من الحكام يفكر فى مثل ما فكر فيه المنصور وبقى البيـــت محاطا بالاكبار والاعظام لا تمتد اليه الأيدى الا بالاصلاح والترميم أو التماس البركة من المولى جل وعز .

الذبيح الثاني

ويبقى حديث زمزم التى فجرها جبريل من تحت عقب اسماعيل والتى كانت هى السبب الذى من أجله عمرت مكة وآوى اليها بطون جرهم والعماليق ، ويروى المؤرخون أن هذه البئر بقيت تسقى أهل مكة حتى دفنتها جرهم بعد أن اضطرت الى الجلاء عن البيت الحرام أمام زحف خزاعة واستعاض الناس عن مائها بآبار حفروها حتى رأى عبد المطلب فى منامه من يأمره بازالة الثرى عنها وتكررت هذه الرؤيا ثلاث مرات فى ثلاث ليال متواليات وقام عبد المطلب وابنه الحارث بالحفر عن هذه البئر بعد أن دله الهاتف على مكانها وأنبأه باسمها وكانت جرهم قد دفنت مع البئر غزالتين من ذهب بالاضافة الى عدد من السيوف والدروع ، وما أن تم الحفر حتى خاصمت قريش عبد المطلب على الذهب والسلاح وعلى الماء كذلك فالبئر بئر ابراهيم وهم جميعا من ولده وانتهى النزاع بأن أخذ عبد المطلب السلاح وضرب الذهب وصفحت به أبواب الكعبة وجعل الماء مشاعا يشرب منه من يشاء ، ويروى المؤرخون وكتاب السير أن عبد المطلب لما نازعه قومه على الحفر ونازعوه على الماء والذهب والسلاح ولم يكن له من الولد من يشد أزره سوى الحارث أعطى لله نذرا لئن رزقه الله تعالى بعشرة ذكور ليذبحن منهم واحدا له سبحانه وتم له ما أراد وبلغ عشر ذكور واستشارهم عبد المطلب فى نذره هذا وكلهم رضى بأن يكون هو الفداء ولكى

ينفذ ما اعتزمه فقد أسهم بين أولاده وخرج القدح على أحبهم اليه وهو عبد الله آخر هؤلاء البنين وجودا على وجـــه هذه الحيـــاة وأخذ عبد المطلب مديتـــه واصطحب ولده ليذبحـــه وعارضت قريش كلها فى هذا النذر وخافوا أن تكون هذه عادة من الآباء نحو الابناء وانتهى الرأى الى أن يحتكموا الى كاهنة كان لها تابع من الجن وكانت مشهورة لديهم بالخبرة والعلم وسألتهم الكاهنة كم الدية فيكم فقالوا عشر من الابل فأمرتهم أن يضربوا بالقدح عند هبل على عبد الله وعلى هذه العشرة فان خرجت القـــداح عليـــه والا زادوا عشرا بعد عشر حتى يرضى الرب ، وذهب القوم ونفذو ما أمرت به الكاهنة وكانوا كلما ضربوا القداح خرجت على عبد الله حتى بلغت الابل مائة وعند ذلك خرجت على الابل واستبشر القوم وكبروا وأصر عبد المطلب على أن يدير الأقداح مرة بعد مرة حتى يطمئن قلبه ويثق من أن الله تعالى قد رضى ، وبعد ثلاث مرات أمر عبد المطلب بالابل فنحرت وتركت لا يزاد عنها انسان ولا حيوان ولا طائر وهكذا كان عبد الله بن عبد المطلب هو الذبيح الثانى بعد اسماعيل عليه الصلاة والسلام وهكذا ذهب هو الآخـــر بهذه المنقبة السامية وهذا الذكـــر الجميـــل فصلى الله على اسماعيل وابراهيم وصلى الله على محمد ابن الذبيحين وسيد الثقلين عدد كلماته وزنة عرشه وجعل هذا العمل خالصا لـــه وحده وألهمنا شكره وحمده .